بيار كورناي

السيد

تعريب

خليل مطران

دار مارون عبود

السيد

بيار كورناي

السيد

تعريب

خليل مطران

دار مارون عبود

الطبعة العاشرة

١٩٨١

كتب للمؤلف

ديوان الخليل	٤ أجزاء
المختـــارات	جزءان
إلى الشـباب	
من ينابيع الحكمة والأمثال	

معرّب عن شكسبير :

تاجر البندقية
عطيـــل
مكبث
هملت

عن كورناي : بوليوكت
السيد
سنّا

عن فيكتور هيغو : هرناني

كتب نفدت

مراثي الشعراء في رثاء محمود سامي البارودي
مرآة الأيام في ملخص التاريخ العام
صدى الرثاء في سليم بك صيدناوي
الفلاح – مترجمة عن يوسف نحـاس
الموجز في علم الإقتصاد
ديوان ابن قلاقس
تربية الإرادة
بشارة تقلا

تحت الطبع

الجزء الخامس من الديوان

مقدمة

«السيد» هي التمثيلية الفرنسية التي أجمع النقّاد والدارسون على اعتبارها فاتحة العصر الذهبي في تاريخ المسرح الفرنسي .

قبلها ، كان هـذا المسرح يغص بالتقليد البائخ ، والمحاولات الفاشلة ، والتهريج البعيد عن سلامة الذوق والقيم الأدبية .

وبعدها ، سار التمثيل المسرحي صُعداً الى ذرى الابداع مبنىً ومعنى ، فكانت تلك النهضة التي شهدتها فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وقـد اتسع اشعاعها فشمل اوروبا والعالم .

أبرز المعلومات المتداولة أن الشاعر كورناي استقى موضوع «السيد» من تمثيلية اسبانية وضعها « غيليم دي كاسترو » عنوانها « شباب السيد » ، ولكن الفوارق عديدة بين التمثيليتين :

– فالسيد الاسباني مغامر عنيف يتعمد البطش والضراوة .

والسيد الفرنسي يتحلى بالنبل ، والانفة ، وروح الفروسية على المستوى الأرفع .

— والسيد الاسباني غضوب ، أهوج ، شديد النزق ، يذود عن شرفه ذود الضيغم عن فريسته . والسيد الفرنسي مثال الفارس اللطيف ، المهذب ، الأنيق ، الشجاع .

وبين التمثيليتين فوارق فنية ومسرحية أيضاً :

— فمسرحية كاسترو تتألف من ثلاثة فصول: الأول يستغرق يوماً ، وكل من الثاني والثالث يستغرق شهوراً عديدة . بينا مسرحية كورناي تتوالى على خمسة فصول محصورة كلها في يوم واحد .

— في مسرحية كاسترو ، يستدعي دون دياغ أبناءه الثلاثة ، ويلوي معاصمهم فيعتصرها على التوالي لاختبار صلابتهم ، فيئن الأول ، ويشكو الثاني ، فيطردهما الوالد المهان . أما الثالث ، رودريغ ، فيثبت رابط الجأش. فينقض الوالد على المعصم نهشاً. يعضه حتى يدميه . فينتفض الفتى غاضباً ويهدد . عندئذٍ يعهد اليه أبوه بمهمة الانتقام .

وقد صرف كورناي النظر عن هذه التفاصيل المثيرة ، لعلمه أنها تناقض ما كان المجتمع الفرنسي قد بلغه آنذاك من حسن الذوق ورهافة الشعور .

وهناك فوارق في الاسلوب الفني والمرمى الخلقي :

– فكاسترو يحـاول إحراز إعجاب المشاهدين ، وكورناي يحاول تثقيفهم . الأول يريـد الإثارة بعنف الحوادث ، والآخر يريد تصوير الطباع والأخلاق تصويراً غنياً بالامثولات والعبر .

ان جوهر «السيد» في تمثيلية كورناي هو الصراع ، في نفس كلٍّ من رودريغ وشيمان ، بين الحب والواجب : الحب النبيل ، الأنوف ، والواجب المشبع بروح الكرامة والشرف .

ومن الطبيعي أن يكون الحب شديد الاحتدام والفعالية في نفس الشابين المتحابين على تفاهم واحترام متبادل ، إلا أنـه لا يقوى على زحزحة الواجب قيد انملة .

وهـذا هو الطابع الذي تميز بـه مسرح كورناي في مختلف مراحله .

ولعل أهم ما في هـذه المسرحية انها رائدة . فهي الاولى في عصر عطاء فياض ، وإبداع ما يزال حتى اليوم منهلاً للادباء والمتأدبين . فعقدة الرواية بارعـة الحبك ، ومدارها طبيعي التسلسل ، فيه من المفاجآت ما يُثير ولا يُستغرب ، وما يبعث التعجب في نطاق المقبول والمعقول .

ثم هناك الدقـة في تحليل الطباع والأخلاق ، حتى لكأنك تلمس أعماق الأبطال المتحركين على المسرح ، وتعايشهم ، وتدرك خفاياهم عبر أقوالهم وحركاتهم ، وحتى صمتهم .

وهناك الشعر الكورنيلي البالـغ العظمة ، كأنه سُك من

ذهب ، او صُب في قالب العبقرية التي تجعل من الكلمات آياتٍ بيّنات ، وأمثالاً تحيا على مدى الزمان .

وهذا النوع من الشعر غني بالموسيقى ، سائغ الألفاظ ، ينطبع في الذهن انطباعاً عميقاً راسخاً لا يمحوه مرور الأيام ، لما فيه من جذور الحياة ومعدنها الأبدي .

فالمشاهد المهمة تبدأ دائماً بأبيات تجتذب ، وتفرض نفسها ، وتستقطب الانتباه :

– أخيراً ، لقد انتصرت !

– رودريغ ! أشجاع أنت ؟

– إليّ ، أيها الكونت ... لي كلمتان !

– مولاي ، مولاي ! عدلك !

– ماذا ؟ رودريغ في وضح النهار ؟

ويجري بك السياق مليئاً بالحميـــة ، حافلاً بالحركة ودفق المعاني ، كأنه يتفجر من ينبوع ، فتنقاد اليه طائعاً ، مرتاحاً ، مأخوذاً بما ترى وتسمع ، وتكاد تلمس .

بهذه الجمـالات الفنية والفكرية احتلت تمثيلية السيد المرتبة الاولى ، وما تزال . مما جعل بول البير يقول : « انهـا ، من بين تمثيليات كورناي ، فسرت أقـل من كل لاحقاتها ، فما برحت تعجب الجماهير حتى الإثارة » .

أما سانت بوف،وهو الشهير بالقسوة والعزوف عن المسايرة، فقال : « السيد هي انتاج شباب ، وبداية جميلة لرجل ، وبداية عهد جديد للشعر ، وفاتحة عصر مجيد . فالأبيات الشعرية فيها تتوالى عفوياً لدى كل خطوة . انهـــا زهرة خالدة من الحب والشرف » .

« وقال نيزار : « في هذه التمثيلية سحر عجيب من الشباب والحب ! »

ولا ريب في انها جديرة بهـذا القدر ، وبأن تبقى بين أيدي الدارسين والمتأدبين .

نظير عبود

أشخاص الرواية

دُن فرناند	:	ملك مقاطعة قشتالة
دن دياج	:	والد « لذريق » ومرشد لأمير قشتالة
دن غوميز (الكنت)	:	سيد مقاطعة جورماس ووالد « شيمان »
دن ردريك (لذريق)	:	حبيب « شيمان » ويود الاقتران بها
دن سنش	:	ينافس « لذريق » في حب « شيمان »
دن أرياس دن ألـُنس		شريفان من أشراف المقاطعة

السيدات

دونا اوراك	:	بنت الملك دن فرناند ملك « قشتالة » وتنافس « شيمان » في حب « لذريق »
شيمان	:	بنت « الكنت دن غوميز »
ليونورة	:	مربية « بنت الملك »
الفيرة	:	مربية « شيمان »
وصيف		

— القرن السابع عشر —

الفصل الاول

المشهد الأول

شيمان ، الفيرة

شيمان : أي الفيرة ، هل خبّـرتني الخبر اليقين ، ولم تخفِ عليّ شيئاً مما قاله أبي ؟

الفيرة : كل جوارحي ما زالت تهتزّ طرباً لما سمعته منه، وان مكان لذريق من رعايته كمكانه من حُبّـكِ ، فَإلَّمْ أكن قـد خُدعت في استطلاع طلع[1] نفسه ، فهو سيتقدم اليكِ بان تجيبيه الى هواه .

شيمان : إذن أعيدي عليّ ، ولك الشكر ، ما استدللتِ منه على أنه

(١) طلع : باطن .

يستصوب اختياري ، ثم زيديني علماً بما أنوط بـه أملي ، فليس هذا الحديث العذب مما يمج تكراره ، وما من بشرى أحب إليّ وإلى من أحب ، من بشرى انطلاق اللواعج[1] الكمينة فينا يوماً ، وشبوبها في الرائعة[2] . وبمَ أجابك عن المنافسة اللطيفة التي يتنافسها لديك دن سنش ودن لذريق ؟ أولم تُظهري له ، بما ينفي كل ريب ، ما بينهما من تفاوت يجنح بي الى احدهما ؟

الفيرة : لا ... بل وصفتك له وصف الواقفة منهما موقفاً لا يشيد أملاً ولا يهدم أملاً ، والناظرة اليهما نظرات لا مجافية ولا مواتية، ترقب أمر أبيها في اصطفاء قرين لها . ولقد سرّته منك هذه الرعاية لشأنه سروراً تجلت آياته وشيكاً على فمه ومحيّاه . وما دمتِ مشوقة الى سماع ما أردده من هـذا الحديث فدونك ما قاله لي عاجلاً عنك وعنهما : « هي في حد الواجب ، وكلاهما كفء لها ، كلاهما من عنصر كريم فيه الشجاعة والوفاء وكلاهما مقتبل الشباب ، تتلألأ في

---

(١) اللواعج : الهوى المحرق .

(٢) الرائعة : الاول .

عينيه زواهر الفضائل التي تحلى بهـــا أجداده الأمثلون ، أخص بالذكر دن لذريق ، فما من مَخِيلة في وجهه إلا وهي أجمـــل صورة لمروءته ، تحدّر من أصل كثر فيه عديد أحلاس[1] الحرب، حتى لكأنهم يولدون بين أغصان الغار، أبوه تفرّد في زمانه ، بين أقرانه الصناديد ، بباس لزمه ما لزمته قوته ، فضُربت به الأمثال ، خطّت معاركه آياتها غضون جبهته ، فهي تحدثنا الى اليوم عمـــا كان شانه في عصره ، ورجائي أن أرى من الولد ما رأيته من والده ، فلا حرج على بنيّتي من قبلي أن تمنحه هواها » . قال هـذا وقـــد حانت ساعة انصرافه الى المجلس ، فقطعتْ ذلك الحديث قبل مضيّه فيه ، ولكنني أستخلص من هـــذه الكلمات القلائل أن فكره غير متردد كثيراً بين الخاطبين. ينظر الملك اليوم في اختيار مرشد لابنه،والى أبيك سيسند هذا المقام السامي ، ذلك لا ريب فيه . فان لم يكن له نظير في الباس والاقدام فهو اليوم بلا مناظر ، وحقيقٌ بـه أن يقلّد ذلك المنصب.ولما كان دن لذريق قد أقنع أباه بمفاتحة

---

(١) أحلاس : الشجاع الذي يلازم بيته .

أبيكِ في هذا الشأن عند انفضاض المجلس ، فاغتبطي بحسن انتهازه للفرصة ، وابتهجي بتحقيق آمالك عن كثب .

شيان : بيد أنه يغشى نفسي من الريب ما يغشى ، فهي تخشى هذا السرور ، وتنوء بوقره .

قد تطرأ طارئة بنت ساعتها تغيّر وجوه الأقدار .

وانني لأوجس خيفة من فشل كبير ينجلي عنه هـذا السعد الكبير .

الفيرة : سترين كيف تنجلي خَشية الفشل عن برد الأمل .

شيان : هلمي بنا نرقب المصير ، وليكن ما يشاء الله .

المشهد الثاني

بنت الملك ، ليونورة ، وصيف

بنت الملك : إذهب يا وصيف الى شيان من قِبَلي ، ونبهها الى أنها اليوم تباطأت عن زيارتي ، وأبلغها أن مودتي تأخذ عليها تمهلها .

(يتوارى الوصيف)

ليونورة : مولاتي... تجدّ بك الرغبة كل يوم، فتسألين شيان ما لقيتها عما أفضت اليه في غرامها .

بنت الملك : لا أسألها لغير ما سبب، أنا التي أهدفتها او كادت للسهام التي أدمت مهجتها ، فهي تحب دن لذريق وأنا التي أهدته اليها، وعلى يدي تمكن أن يستنزلها من معتصمها . فأما وقــد أبرمت بينهما أسباب هذا الغرام ، فيعنيني أن أرى نهاية ما يكابدان من الجوى .

ليونورة : على انك يا مولاتي كلما لاحت بارقـة نجاح تبدين أسفاً حتى يعود جزعاً ، فهل ذلك الحب الذي يملأ قلبيهما جذلاً يوقـد في قلبك جذوة تمس الصميم ؟ وهل تلك العناية السمحة بهما تشقيك في حين تسعدهما ؟ اراني قــد جاوزت حدي ، وأفضيت الى الفضول .

بنت الملك : يضاعف حزني انني لا أبوح بــه . أصغي إليّ ـ نفِدَ صبري ـ واعلمي أي جهاد جاهدت ، وأي كفاح ما زلت أكافح حتى لا تخونني عزيمتي . الغرام طاغية لا يبقي على احد ، وهـذا الفارس المقتبل الشباب ، هـذا العاشق الذي أهديه الى سواي أحبه .

ليونورة : تحبينه !!

بنت الملك : ضعي يدك على قلبي ، وتحسسي كيف يخفق لذكرى مالكه وكيف يعرف سلطانه عليه .

ليونورة : اغتفري لي يا مولاتي أن أتخطى واجب الاجلال ، وأخطّئك في هذا الهوى . أتتمادى اميرة عظيمة في تناسي مقامها حتى تفسح مكاناً في قلبها لفارس من عامة الفرسان؟ وماذا يقول الملك ؟ وماذا تقول قشتالة ؟ أتذكرين ، أم غاب عنك بنت من انت ؟

بنت الملك : أذكر ذلك، ولن يغيب عني أو أسفك دمي قبل ان أسفّ(1) الى ما دون منزلتي ، على انني لو التمست المعاذير لصبوتي لأجبتك بأن من أبلَغته نفسه العلياء حقيق بأن يقع له من ذوات النفوس الزكية ما لا يقع منهن لأنداده بالمناسب ، ولاستعنت بألف مثَل شهير على الترخص في هذه الاستباحة، غير أنني لا أريد ان اقتدي بقدوة تمس شرفي، ولن امكّن سورةَ حواس من التغلب على إبائي ، بل اقول لنفسي في كل آن انني بنت ملك وان كل رجل ما لم يكن رب تاج غير كفء لي . فلما وجدت ان قلبي قد اوشك ان يفقد منعته، اعطيت بيدي ما لم اكن لأجسر على اخذه بيدي ، فجعلت شيمان بمكاني منه ، وقيدتها بقيوده ، وأوقدت نيرانها

(1) أسفّ : دنا .

لأطفىء نيراني ، فلا تعجبي من ان نفسي المعذبـة ترقب قرانها بذاهب الصبر .

ومن ثمّ ترين ان راحتي بعد اليوم منوطة بهذا الزواج. يحيا الحب بحياة الأمل ، ويموت بموت الأمل .

هو ضرام[1] يأكل نفسه ان لم يجـد ما يأكل . لشد ما أعانيه من تبريح المحنـة التي انا فيها ، فإذا عُقـد لشيمان على لذريق يوماً قضي على أملي ، وشفي عقلي .

على انني في هـذه الأثناء أكابد ما لا تدركه الظنون ، والى ان يتم ذلك القران سيظل لذريق هواي ، اعمل لفقده، وأجزع لفقده ، ومن هنا مبعث شجوني ، وان اخفتها شؤوني .

فواحرّ قلبـــاه من الغرام ، يصعّـد انفاسي الحرّى شوقاً الى من ازدريه ، اشعر بقلبي وقـــد انشقّ شغافه ، فشطر بالشجاعة علا ، وشطر بالصبابة استعر .

هذا الزواج قضاء عليّ فأخشاه وأتمناه ، وغاية ما آمل منه ليس إلا سروراً منقوصاً .

---

(١) ضرام : دقيق الحطب .

شرفي وحبي يتنازعان لبي .

وسواء عليّ أتم ذلك القران أم لم يتم ، فان نهاية حياتي احدى النهايتين .

ليونورة : بعد هـذا يا مولاتي لم يبقَ لي ما اقول سوى انني اجـد ما تجدين وآخذ من حزنك بنصيب .

كنت لك عاذلة فأصبحت عاذرة . وما دام في هـــذا المعترك العذب المرير لك جلَـد تدرأين به صدمات الهوى ، وتبطلين سحره ، فهو سيعيد اليك صفاءك، ويجمع شتيت أفكارك ، فارجي منه كل خير بمعونة الزمن، وارجي كل خير من الله جلّ عدله عن الإغضاء عنك طويلاً ، وأنت تعانين ما تعانين في الذود عن عرضك .

بنت الملك : أشهى رجاء إلي هو ان ابقى بلا رجاء .

الوصيف : امتثالاً لأمرك حضرت شيان .

بنت الملك : (الى ليونورة) اذهبي واجلسي اليها في هذا الرواق .

ليونورة : أتبغين ان تمضي في هيام فكرك ؟

بنت الملك : لا ، وإنما أبغي علىالكُـره مني خلوة يسيرة لتطرية وجهي وسالحق بك .

يا رباه . من أية يد أستمد دوائي ، أدركني من شقوة تمادت ورفّه عني . أعِد إليَّ السكينة ، وأيّد شرفي . أنا أنشُد سعادتي في سعادة غيري . نحن ثلاثة يعنيهم هذا القران في آن، فعجّل تحقيقه أو شدّد عزيمتي، فان ارتباط هذين العاشقين برباط الزواج يحطم قيودي ويمسح آلامي . أبطأت على شيمان فلأمضِ للقائها ، ولأروّح عني بحديثي معها .

المشهد الثالث

الكنت ، دن دياج

الكنت : لقد آل اليك الحظ الأوفر،ورفعتك نعمة الملك الى منصب كنت انا الأحقّ به ، فجعلك مرشداً لأمير قشتالة .

دن دياج : هذا الشرف الذي أكرم به أسرتي يدل على انه عادل ، ويقدر ما قدمت من الخدمة حق قدره .

الكنت : مهما يكن الملوك كباراً فهم ونحن شيء أحد ، يجوز ان يخطئوا كما يخطىء سائر الأنام ، وهذا الاختيار دليلاً لدى

جميع المقربين على ان الملوك لا يحسنون جزاء الخدَم العتيدة .

دن دياج : لندع الكلام في اختيار يثير بك الحفيظة ، فقد يكون عن عطف ، وقد يكون عن جدارة ، وعلى الحالتين يجدر بنا ، إجلالاً للسلطان المطلق ، ألا نبحث في أمر وقـــد أراده الملك . أتزيدني شرفاً على الشرف الذي اضافه إلي الملك فتصل بين بيتي وبيتك بصلة مقدسة : ليس لك إلا بنت ، وليس لي إلا ولد .

فاذا اقترنا سمت صداقتنا الى قربى لا تنفصم . أولِنا هذا الفضل واتخذ ولدي صهراً لك .

الكنت : حقيقٌ بهذا الشاب الجميل ان ينظر الى ما هو أسمى، وخليق بالبهرج الجديد الذي زانك بـــه منصبك ان يشغل قلبه بطمع ، فامضِ في شان منصبك يا سيدي ، وارشد الأمير ، أرِه كيف يصرف شؤون دولته ، ويخضع شعوباً عن يدٍ لأحكام قانونه، ويفعم قلوب الأخيار محبة، وقلوب الشرار رهبة. ثم اضف الى تلك الفضائل مزية قائد الجيوش فبيّـن له كيف يجب ان يصبر على المكاره، وأن يتفوّق على الأنداد في صناعة القتـال ، وان يقضي الأيام والليـالي الطوال على

صهوة جواده ، وأن يستريح متقلّلاً بأسلحته ، وأن يخترق الأسوار ، وأن يأبى النصر إلا وهو كاسبه .

درّبه بقدوتك، وأبلغه الى الكمال، شارحاً له دروسك بوقعات يشهدها ، وشواهد منك تؤيدها .

دن دياج : حسبه اسوةً ـ وان كره الحاسدون ـ ان يطالع سيرتي وجريدة احسابي، ويتابع السلسلة الطويلة من جسام فعالي فينجلي له كيف يروّض الشعوب من عصيان ، ويهاجم الحصون ويعبّيء الفيالق ، ويشيد شهرته البعيدة على ملاحم مجيدة .

الكنت : ان للقدوة الحية لسلطاناً آخر .

لا يحسن الأمير استذكار واجبه ان يقرأه في كتاب .

وبعد فهل فعلت في ذلك الردح الطويل من دهرك ما لم تضارعه فعالي في يوم من أيامي ، لقد كنت شجاعاً وإني لكائنه اليوم ، هذا الساعد هو اقوى ركن للمملكة .

ترتعد غرناطة والأرغون حين أنتضي حسامي .

ويقوم اسمي مقامَ السور المنيع دون قشتالة . لولاي لانتقلتم عاجلاً من ولاية قوم الى ولاية آخرين ، ولأصبح أعداؤكم بين ليلة وضحاها ملوكاً عليكم .

كل يوم او بعض يوم يضيف الى مجدي غاراً فوق غار، وفوزاً بعد فوز . ولو وجـــد الأمير بجانبي في الحومات لارتاض بأسه في ظلّ ذراعي ، ولتعلم النصر وهو يشهد نصراتي ، ولاستكمل وشيكاً خلقه العظيم برؤية ...

دن دياج : اعرف انك تحسن القيام بخدمة الملك ، وقد نظرتك تكافح وتقود الجنود تحت إمرتي، فلما علت سني ، وأسال الشيب صقيعه في اعصابي ، أحللّتك بسالتك النادرة إحلالاً كريماً في مكاني ، وعلى الجملة وتنكّباً عن الفضول، إنما أنت اليوم ما كنت انا بالأمس ، غير انك رأيت في سانحة هذا اليوم ان الملك وجد موضعاً للتمييز بيني وبينك .

الكنت : قد غصبتَ مني ما كنتُ به أولى .

دن دياج : إنما آب بالغنم من كان به أولى .

الكنت : كان الأقدر على هذه المهمة بتولّيها اجدر .

دن دياج : لأمر ما لقيتَ المنع بدلاً من المنح .

الكنت : أظفرك بالمنصب ظهراؤك[1] لقدم عهدم بالزلفى[2] .

---

(١) الظهير : المعين ، القوي الظهر .

(٢) الزلفى : القربة ، الدرجة ، المنزلة .

دن دياج : لم يكن لي ظهيراً إلا ما سطع من آيات إقدامي .

الكنت : لنذكر بالأحرى ان الملك راعى كبر سنك .

دن دياج : اذا منح الملك رفعة قاسها الى الكفاية .

الكنت : ومن ثَمَّ كنتُ أحق منك بتلك الرفعة .

دن دياج : من لم يحرزها لم يكن أهلاً لها .

الكنت : لم يكن لها أهلاً ... أأنا ؟

دن دياج : أنتَ .

الكنت : دونك ايها الهرم الجسور جزاء قحتك (يلطمه على وجهه)

دن دياج : (آخذاً سيفه بيده)

أنجز واجهز عليَّ بعد هذه الاهانة . هي اول وصمة ندى[1] لها جبين في اسرتي .

الكنت : ما انت فاعل مع ما يقعد بك من العجز ؟

دن دياج : يا رباه . ان قوتي المتلاشية لتخونني في هذا الموقف .

الكنت : (مسقطاً بطرف سيفه سيف خصمه)

سيفك لي ... ولكنك قد تفخر وتزهى لو حملت بيدي هذا السَلَب المخجل . وداعاً ... أقْرِىء الأمير

(١) ندى : يقال يندى لها الجبين حياء .

ـ وان كره الحساد ـ سيرة حياتك لاستكمال تهذيبه، وهذا العقاب الذي عوقبت به عن هُجرك في القول لا يدع ان يزيد تلك السيرة حلية صغيرة .

المشهد الرابع

دن دياج

دن دياج : يا للحنَق ... يا للياس ... يا للشيخوخة القهّارة ألم تمتد بي أيامي إلا لتعلّق بي هـذه السُّبة ، أو لم أشبّ متمرساً بآفات الحروب إلا لأرى في يوم كل ما علاني من أكاليل الغار ملطخاً بالعار .

أساعدي الذي تكبره اسبانيا جميعاً ، أساعدي الذي أنقذ هـذه المملكة من كل كريهـة ، وثبّت عرش صاحبها كلما تداعى ، يخونني اليوم في خصومتي ولا يجديني فتيلاً؟

يا للذكرى الأليمة ، ذكرى مجدي السالف الذي بني في ايام عداد ، وتقوّض في يوم واحد .

يا منصبي الجديد الذي كَبَا به طالع سعدي ، فكان مهبطاً باذخاً سقط من عليائه شرفي .

أحقّ عليّ أن أرى الكنت بعدوانه يطفىء سناك ،
وأن اموت بلا انتقام او اعيش في شنار ؟
أيها الكنت : كنت بعد هذا اليوم مرشد اميري .
هذا المقام السامي لا ينفسح لرجل ثُلم[1] شرفه .
حفزك الحسد والكبرياء فكسوتَني سبّة نحّتني عن ذلك المنصب ولم يغنِ عني معها اختيار الملك .
فانت أيها النصلُ الذي كنت أداة مجيدة لحملاتي أصبحتَ زينةً غير مجدية لجسم قد خمدت عزيمته .
أيها الحديد الذي هابه الأعداء قديماً ، وفي هذه المذلة وجدُته حلية للبهرجة لا أداة للدفاع ، اذهب وفارق من اليوم أحقر من فوق الثرى ، وانتقل ــ لتنتقم لي ــ الى يد خير من يدي .

---

(١) ثلم : ثلم الحائط أحدث فيه الخلل .

المشهد الخامس

دن دياج ، دن لذريق

دن دياج : لذريق ، ألك فؤاد ؟

دن لذريق : لو سالني غير أبي لذاق باسي وشيكاً .

دن دياج : نعمت الغضبة . ونعمت الحفيظة التي تلطف ألمي . لقد عرفتُ في هذه السَّوْرة[1] دمي ، وبُعث شبابي في هذه الفورة السريعة .

تعال يا ابني . يا دمي . تعال واثار لوصمتي . تعال وانتقم لي .

دن لذريق : مِمَّ ؟

دن دياج : من إهانة شديدة طُعن بها شرفنا الطعنة القاتلة ، من لطمة في الوجه بيد وقحٍ ما كنت لأُبقي عليه لولا أن الهرم قد اخذ من عزيمتي الصادقة . وهذا الحسام الذي شلّ به زندي أدفعه اليك لتثار لي وتعاقب الأثيم . فاذهب واختبر شجاعتك في مبارزته .

(١) السورة : حدة .

ان إهانة كهذه لا تُغسل إلا بالدم ، فمُت او اقتل . واعلم ، حذرَ الاغترار ، ان الذي أدعوك الى كفاحه رجل يُرهب جانبه، فقد شهدته مجلّلاً بالدم والعِثْيَر[1] ، يلقي الرعب في قلب جيش بأسره ، ورأيت الجحافل تتمزّق بصدماته . ولأزيدك علماً به أقول انـــه فوق العسكري الباسل ، وفوق القائد الكبير . هو ...

دن لذريق : رحماك أتمم .

دن دياج : والد شيمان .

دن لذريق : الـ ...

دن دياج : لا تحاور . أعرفُ هواك . ولكن الذي يطيق الحياة في ذلة غير جدير بالحياة . انهـا لتشقّ المهانة علينا بقدر ما يكون مقترفها حبيباً الينا . فأما وقـــد عرفتَ الاساءة وبيدك الانتقام منها ، فلن أقول لك غير ما قلت . خـذ بثأري . خذ بثأرك . وأظهر أنك الابن البار الخليق بالانتساب الى أبٍ مثلي . سأمضي وأنا أنوء بالمصائب التي صبّها عليّ القدر ، فأبكي لما حلّ بي منها . وأنت فاذهب . توثّب . طِرْ وانتقم لكلينا .

(١) العثير : التراب والعجاج .

المشهد السادس

دن لذريق

دن لذريق : رُميتُ في صميم الفؤاد بسهم فاجانٍي فاصمى . أنا الطالب المسكين لثأر عادل ، والهدف الذي تُبرّح به صروف دهر ظالم ، اقف بلا حراك وتستسلم نفسي مستضعفةً لضربة تودي بي .

أفي حين أوشكتُ ان أبلغ غرامي ـ واحرّ قلباه لمرارة خطبي ـ يكون في هـذه الخصومة أبي الموتور[1] ، ويكون الواتر أبا شيمان الشدّ ما أكابد من المعارك في نفسي حتى شرفي يحاربني دونه غرامي . يجب أن أنتقم لأبي ، فان افعل افقد ريحانة روحي. فمنازعة يحفز قلبي، واخرى تصد ذراعي . افضيت الى التخيُّر الأليم بين خيانة هواي او الرضى بالهوان ، ومن كلا الجانبين مصابي وراء كل مصاب ، وارحمتا لي من تانق هذا العذاب !

أأدع الاساءة بلا عقاب ، أم أقتصّ من المسيء وهو ابو

(١) الموتور : من قُتِل له قتيل فلم يُدرِك بدمه .

شيمان ؟ الوالد ـ المعشوقة ـ الشرف ـ الغرام ، وأنا بين الطواعية للأمر الشريف القاسي او الاستبداد المعذب .

بادت جميع مسراتي او صُدع شرفي .

احد الأمرين يردني شقياً ، والثاني يُفقدني الحق في البقاء .

فيا ايها الأمل الحبيب البغيض الصادر عن نفس أبية للهوان مدلهة[1] بالهوى في آن ، إنكَ لأشرف عدو لأتمّ سعادة اطمع فيها. ويا سيفاً يسبب شقائي، أقُلّدتك لأثار بك لشرفي ؟

أقلدتك لأرزأ بك شيمان ؟ أولى لي ان اهرع للقـاء منيتي . انا مدين لمحبوبتي كما انا مدين لوالدي ، فاذا انتقمت أثرت غضبها وبغضاءها ، واذا لم انتقم كسبت ازدراءها .

فحالة تنقضُ ما عاهدت عليه أعزّ آمالي،وحالة تجعلني غير كفء للتي احبها . يتفاقم دائي بما ألتمس له من الشفاء، وكل شيء يزيد تباريحي ، فتوطني يا نفس اذا لم يكن بدّ من الموت ، على ان نَرِد حوضه من غير اساءة الى شيمان .

---

(١) الداله : الذاهب العقل من العشق ونحوه .

أأموت ولا أستادي حسابي موتاً يقضي على شرفي بشر قضاء،
متحملاً ان تصِم اسبانيا ذكراي بانني لم أرعَ كرامة بيتي!
أأوثر حباً تراه نفسي ــ وان اضلّها ــ صائراً الى الضياع! فلا نُصغِ الى إغراء خادع لا يجدي عليَّ سوى مضاعفة آلامي. وهلمّ يا ساعدي ننقذ الشرف اذا لم يكن لنا بد من فقد شيمان.

اجل. كان عقلي قد اختبل. انا مدين بكل شيء لأبي قبل معشوقتي. لأُجندل[1] في الكفاح، او لأهلك من الأسى، سأردّ دمي نقياً كما تلقيته، انني لأشكو نفسي من تريثي.

بدارِ[2] الى الأخذ بالثأر. واخجلتا من هذا التردد الطويل.

لا عليَّ. ووالدي هو الذي أُهين اليوم. ان الذي اعتدى عليه هو والد شيمان.

---

(١) جندل: صرع.   (٢) بدار: أسرع.

الفصل الثاني

المشهد الأول

دن ارياس ، الكنت

الكنت : اعترف بيني وبينك ان الحمية استفزتني ، وان دمي غلى من كلمة أكبرتُ مرماها . فاما وقد قضي الأمر ، فالعلة لا دواء لها .

دن ارياس : فلينزل قلبك الكبير على ارادة الملك ، إذ ان ذلك الحادث قــــد وقع منه موقعاً أحفظه ، وسيقضي في شانك بمطلق سلطانه . وليس لك من عذر مقبول : فان خطر المُساء اليــه ، وجسامة الاساءة يستلزمان من الواجبــات ومن الطاعات ما يتخطى حدّ المألوف في الترضيات .

الكنت : للملك ان يتصرف في حياتي كما يشاء .

دن ارياس : أتبعتَ وزرك بوزرٍ آخر من النزق والاندفاع .
الملك ما زال يودّك، فسكّن غضبه . قال اني اريد ، فهل تابى الامتثال ؟

الكنت : يا سيدي ، أإذا أبقيتُ على كرامتي ومن اجلها انحرفت عن الطاعة انحرافاً يسيراً أتعدّ عليّ هذه المخالفة ذنباً جسيماً ؟
على انه لو بلغ ذنبي ما بلغ ، فان خدَمي الراهنة كافية للتكفير عنه .

دن ارياس : مهما يأتِ التابع من عظائم الفعال فلا فضل له بهـــا على الملك . انك لتحسن ظنك بنفسك غاية الاحسان ، على ان خدمة الملك فرض مقضي ، فان ظللت على هـذا الاعتداد بنفسك افضى بك الى سوء المصير .

الكنت : لا اصدّق الخبر حتى يؤكده الُخبر .

دن ارياس : يجب ان تحذر جانب الملك .

الكنت : يوم واحـد لا يقضى بـه على رجل مثلي . فليتسلّـح بكل اسلحة اقتداره لتعذيبي . ان اهلِـك تهلك الدولة.

دن ارياس : يا عجباً . أهذا مبلغ تهيّبك للسلطان الأعلى ؟

الكنت : سلطان الصولجان الذي لولاي لسقط من يده . ان مصلحته

كلٌّ مصلحته لفي بقائي ، فاذا هوى رأسي هوى تاجه عن رأسه .

دن ارياس : تلطف بتهدئة روعك،والرجوع الىرأي أصوب في شأنك.

الكنت : قد انتصحت بما بدا لي .

دن ارياس : فماذا أقول له اذن ، ولا بد لي من الجواب ؟٠

الكنت : قل له انني لا استطيع قبول ما فيه إذلالي .

دن ارياس : ولكن تذكر ان الملوك يأبون إلا ان يكونوا مستبدين .

الكنت : هذا أمرٌ قد فُرغ منه يا سيدي ، فلا محلّ لمزيدالقول .

دن ارياس : بقي عليّ الانصراف بعد اخفاقي في إقناعك ، وليس الغار ليردَّ عن هامتك فاتّـقِ الصاعقة .

الكنت : سأتنظّـرها بلا وجل .

دن ارياس : ولكنها واقعة لا محالة .

الكنت : سنرى اذن دن دياج بالغاً مرامه . (منفرداً) من لا يخشَ الموت لا يخشَ الوعيد . ولي قلب يعلو علوّاً كبيراً عن النقم ، وان كان من الأوج مهبطها . لأيسر لي أن أتحمل عبء الحيـاة لا نعماء فيها ، من ان أطيق العيش والشرف مُثلم .

المشهد الثاني

الكنت ، دن لذريق

دن لذريق : سمعكَ يا كنت . لي اليك كلمتان .

الكنت : تكلم .

دن لذريق : أزِل ريباً من نفسي ، أتعرف دن دياج

الكنت : نعم .

دن لذريق : لنتكلم همساً ـ إصغِ إليَّ .

أتعرف ان هـــذا الشيخ كان في زمانه مثال الفضيلة والشجاعة والشرف ... أتعرف ذلك ؟

الكنت : لعله .

دن لذريق : هذه الحرارة التي تسطع في عينيَّ هي حرارة دمه. أتعرف ذلك ؟

الكنت : وما يعنيني ؟

دن لذريق : سأنبئك ان كنتَ من الجاهلين ـ على اربع خطى من هنا .

الكنت : كبرت دعواك ايها الفتى .

دن لذريق : تكلم بلا انفعال . إني فَتىً ما زلت . ولكن الباس في النفوس الكريمة لا يُرتهن بعدد السنين .

الكنت : أتقيس نفسك إليَّ ؟ من الذي نفخ فيك هـذا التبجح ولمّا تمتشق حساماً ؟

دن لذريق : أمثالي يبيّـنون عن باسهم بفتكة لا فتكتين وياتون في التجريب ما لم ياته اولو التدريب .

الكنت : أتعرف من أنا ؟

دن لذريق : أجل . وسواي من يفرَق لشهرة اسمك . أرى غاراً فوق غار يغشّـي رأسك ، فيلوح لي أن الاقدار قد كتبت به آية هلاكي ، ولكنني ساضرب غير مبالٍ ساعداً ما فتىء النصر حليفه ، وساجد من القوة كفاء ما عندي من الشجاعة .

لا يمتنع أمر على الذي ينتقم لأبيه .

زندك لم يُـغلب ولكنه لم يُـعصم من يد تغلبه .

الكنت : هذه الشجاعة التي تتفجر في كلامك كنت أرى مخايلها كل يوم في عينيك ، وأشعر انك ستغدو فخر قشتالة فيطيب لي ان تصبح ابنتي لك حليلة . اعرف هيامك بها ويسرني ان اشهد ان عوامل الهوى لم تحـل بينك وبين الواجب ولم تثنِ عزيمتك النبيلة . ولقد جاءت شمائلك العالية مصداقاً لعالي رأيي فيك ، فتبينتُ منهـا ، وامنيتي اختيـار صفوة الفوارس لمصاهرتي ، انه لم يخطئني التوفيق في إيثارك .

على انني أحس ان بي نزعة من الرحمـة لك ، فأعجب بإقدامك وأشفق على صباك .

دع التعرُّض في بدء شانك لتجربة تاتي على نفسك . وأعفِ باسي من نزال من ليس لي ندّاً . فما من فخر لي في عقبى ذلك النزال .

من غلب ولم يخاطر فاز ولم يمجّد .

سيتوهم الناس انني صرعتك ولم أُجهد ، فيبقى لي ، ولا فخر ، اسف الايذاء بك .

دن لذريق : تُعقّب على جرأتك بشفقة مزرية .
أفمن يسلبني شرفي يتجنب ان يسلبني حياتي ؟

الكنت : توارَ من هذا المكان .

دن لذريق : هلمّ بنا من غير حوار .

الكنت : أأنت تعِب من الحياة ؟

دن لذريق : أأنت ترهب الموت ؟

الكنت : تعال فإنما تقوم بواجب ، وليس بكريم العنصر ولد يعيش يوماً بعد شرف أبيه .

المشهد الثالث

بنت الملك ، شيمان ، ليونورة

بنت الملك : سكّني يا شيمان ، سكّني ألم نفسك ، ورديها الى الصبر في هذا المصاب .

ستجدين الصفاء بعد هذه الراعدة[1] الضعيفة .

وما شوائب سعدك إلا سحائب رقيقة لا تلبث أن تتقشع فتجلدي تحمدي عقباها .

شيمان : قلبي مقسّم بين الهموم ولا يشيم بارقة للرجاء. هذه العاصفة المفاجئة التي هاجت بحراً هادئاً إنما تنذر بغرق لا مقرّ منه.

لست بمرتابة واني لهالكة في المرفأ. كنت محبة ومحبوبة وكان أبوانا على وفاق . فبينا انا أحدّثك بهذا الحديث البهيج اذ تولدت تلك الخصومة، وانتهى اليك خبرها المروع فهدم ما كان مشيداً من آمالي . قبح الطمع ، وساء من خلة تجني باستبدادها على أكرم النفوس .

فيا أيها الشرف الذي لم يرحم أعزّ أمانيّ ، ماذا أنت سائمي من دموع وزفرات ؟

---

(١) الراعدة : السحابة ذات الرعد .

بنت الملك : ليس في هـــذه الخصومة ما يؤذن بما تخافين ، فقد شبّت جذوتها في لحة ، وستخمد في لحة . سيدعو تفشّي أنبائهـا الى جسمها ، وحسبك ان الملك قـد أراد اصلاح البين ، ثم تعلمين انني أرقّ لأشجانك،فما من أمر مستطاع إلا سافعله لإزالتها .

شيان : في مثل هـذا الأمر لا تُجدي المصالحات فتيلاً ، والمساءات القاتلة كهذه لا تندمل جراحها .

هيهاتِ ان تنجع القوة او الحكمة في تلك العلة ، فان شفيت لم يكن شفاؤها إلا في الظاهر .

البغضاء التي تتغلغل في القلوب تغذي نيراناً يخبأها الرماد فما يزيدها إلا احتداماً .

بنت الملك : إن الرابطة المقدسة التي ستربط لذريق بشيان ستذهب بأحقـــاد الوالدين المتعاديين ، وسنرى عما قليل حبكما يستظهر على الضغينة فيهما ، ونرى الزفاف الهنيء يلاشي تلك الشحناء .

شيان : تلك أمنيتي ولكن يقصر دونها رجائي .

دن دياج عاتٍ[1] ، ووالدي أعرفه . تسيل دموعي
وبودي لو ترقأُ ، يؤلمني الماضي ، وأخشى المستقبل .

بنت الملك : ماذا تخافين من هرمٍ قد وهن[2] العزم منه ؟

شيان : لذريق مقدام .

بنت الملك : لم يزل في نضارة عوده .

شيان : الشجاعة في الشجعان تبدو لأول بادرة .

بنت الملك : وعلى هذا لا أرى محلاً لما تحذرين ، فإن لذريق يهواك هوىً ينأى به عما تكرهين ، وكلمتان من فمكِ تكفيان لإطفاء ثورته .

شيان : فإن لم يطعني فما أشد حزني ، وان اطاعني فماذا يقولون عنه ، أيتحمل تلك الاهانة من ينميه اصل كأصله ؟ وسواء أأبرم عهده لي ام نقضه فمصيري معه ، اما الى الخجل منه او الخجل عنه ، لإفراطه في الامتثال او لإبائه وله العذر .

بنت الملك : نفسك يا شيان عالية ، ولا اخال الغرام ينزل بها الى ظنة دنيئة . فاذا أهبتُ بذلك العاشق الواله ، واحتبسته لديّ

(١) عات : جبار ، أيضاً استكبر وجاوز الحد .
(٢) وهن : ضعف .

حتى تنحسر الغمرة ، فحلتُ بذلك بينه وبين تلبية داعي شجاعته أفلا يمرّ بقلبك خلجة شك من هذه الناحية ؟

شيمان : آه يا سيدتي ، لو فعلت لأفرخ روعي .

المشهد الرابع

بنت الملك ، شيمان ، ليونورة ، الوصيف

بنت الملك : يا وصيف ، ابحث عن لذريق وادعه إليّ .

الوصيف : الكنت دي جرماز ودن لذريق .

شيمان : يا رباه !.. أرتعد .

بنت الملك : تكلم .

الوصيف : خرجا معاً من هذا القصر .

بنت الملك : أمنفردَين ؟

الوصيف : منفردين وكأنهما يتلاحيان .

شيمان : لا ريب في أنهما يتبارزان، ولا وقت لإطالة الكلام اغتفري لي يا مولاتي هذا البدار .

المشهد الخامس

بنت الملك ، ليونورة

بنت الملك : يا ويح لي ، ما أشدّ بلبالي[1] ! أبكي لشقائها وعاشقها يملأ قلبي ، زايلتني راحتي ، وثارت لواعجي .

والسبب الذي سيفرق بين لذريق وشيمان ينعش أملي ويجدد في آن ألمي . أرى انفصالهما بمضض وارتماض[2] وفي قرارة مهجتي غبطة وسرور .

ليونورة : تلك العِصمة السامية ، وهي ملاك أمرك ، أتتغلب عليها بهذه السرعة صبوة أثيمة ؟

بنت الملك : لا تصفيها بالإثم بعد أن طغت على نفسي ، وألقيتُ زمامها الى أحكامها القاهرة .

أوْلِيها رعايتك من حيث انها تعزّ عليّ . عفتي تقاتلها ولكن على الرغم مني ارجو رجاءً لا يقوى عليه قلبي المستضعف فيطير بأجنحة الخيال الى العاشق الذي فقدته شيمان .

---

(١) بلبالي : شدة الهم . (٢) ارمض الرجل : أوجعه .

ليونورة : فأنت اذن تقذفين بقوة عزيمتك من حالق ، وتعطلين عمل عقلك .

بنت الملك : آه . ما اقل استجابة الهوى فينا للرشاد حينما يرتوي القلب من سمِّه الشهيّ . قد يألف السقيم نزوات سقامه ، فيشق عليه التماس البرء من آلامه .

ليونورة : أملُكِ يغريك ، وألمك مستعذب ، ولكن لذريق ليس باهل لك .

بنت الملك : أعلم ذلك فوق ما تعلمين، ولكن اذا كان خفري لم يعصمني منه فتبينني كيف يسطو الغرام على القلب الذي يملكه .

اذا خرج لذريق منتصراً من هذه المبارزة، واذا سقط هذا الغطريف بآية من بأسه جاز لي أن أكترث لشأنه وأن أحبه بلا تورع،فما الذي يمتنع عليه، وقد تغلب على الكنت؟ يخيل إليّ عندئذ أنه لو صال أدنى صولاته لدانت له الممالك باسرها . ويهيء لي غرامي منذ الساعة أنني أراه جالساً على عرش غرناطة يستعبد المغاربة ، ويعبدونه خاشعين ، وأن الاراغون ستتلقاه فاتحاً،وأن البرتغال ستوليه قيادها، وأن أيامه الغراء ستمد الى ما وراء البحار جاهه وسلطانه،

وتسقي بدماء اعدائه أكاليل غاره . وعلى الجملة فكل ما قالوه عن أشهر الغزاة أرقبه من لذريق بعد فوزه، وأجعل معه كلفي به فخراً لي وذخراً .

ليونورة : ولكن يا سيدتي تبصري الى اين ترفعين مقامه على أثر مبارزة لعلها لم تحدث .

بنت الملك : لذريق مُساء اليه ... والكنت هو المسيء وقد خرجا معاً ... ابعد هذا جواب على سؤال ؟

ليونورة : ليكن يا مولاتي أنهما يقتتلان كما تشائين ، ولكن هل يدرك لذريق عملاً ما بلّغْتِيهِ اليه أملا ؟

بنت الملك : ماذا تبتغين مني؟ لقد خولط عقلي، وضللت سبيلي فانظري ما يعد لي العشق من التباريح ، تعالي الى غرفتي فسرّي عني ، ولا تتركيني في هذا البلبال وحدي .

المشهد السادس

دن فرنان ، دن ارياس ، دن سنش

دن فرنان : الكنت اذن على ما وصفت من الخيلاء ، وقلـــة البصر بالعواقب ، أيجرؤ على الظن بأن جريمته تغتفر ؟

دن ارياس : حدثته من قِبَـلك وأسهبتُ في البيان ، وبذلت معه جهدي يا مولاي ، ولم أصل منه الى طائل .

دن فرنان : يا عجباً ! رجل من أتباعي تذهب بـه الجرأة الى نقض ما لي من حق التجلة والى الاستخفاف برضاي ، فيهين دن دياج ، ويحتقر مليكه ، ويامرني أمره بين حاشيتي وبطانتي ! ليكن ما شاء مقداماً جسوراً وقائداً قديراً ، سأكسر من غَرْبه[1] ، وأحطّ من خيلائه ، ولئن كان أخاً للشجاعة وإله الحرب لأرينّـه ما عقاب معصيتي . كبرت جريمته وحقّ عليه القصاص ، غير انني أردت بادىء بدء أن أرفق به ، فأما وهو قـــد جاز مدى الحلم ، فامضِ اليه ليومك ، واقبض عليه مستسلماً او مقاوماً .

---

(١) غربه : نشاطه وحدته .

دن سنش : لعل التريث في أمره يردّه عن المعصية ، فقد أخذ على حين كان دمه فائراً من أثر الخصومة .

مولاي إن قلباً نبيلاً كقلبه يصعب اقتياده في حرارة سورته الاولى . انه ليرى خطاه، ولكن النفس الأبية يشق عليها ، ولما يسكت عنها الغضب ، الاقرار بخطئها .

دن فرنان : صه يا دن سنش واعلم أن الشفاعة فيه جريرة كجريرته .

دن سنش : سمعاً وطاعة ولكن سماحاً يا مولاي ، وإذناً لي بكلمتين اخريين دفاعاً عنه .

دن فرنان : وما يسعك أن تقول ؟

دن سنش : يعزّ على نفس تعودت المساعي الجسام التدني الى الطاعات زعماً منها ان خضوعها لا يؤوّل إلا بما فيه هوانها ، فالهوان وحده هو اللفظة التي عصى من أجلها الكنت ، ووجد في أداء مفترضها قسوة ناهيك من قسوة ، وما كان أقربه الى الامتثال لو كان أقلّ صلابة في القتال ، فاوقع اليه أمراً بأن يصلح ما أساء في حومةٍ يخوضها، وجلادٍ يعمل فيه ساعده المتمرّس بآفات المعامع ، يلبّـكَ يا مولاي الى ما تشاء .

ولو تصدى له من تصدّى ريثما يتبين جليـة أمره ـ لاجابه هذا (يشير إلى سيفه) .

دن فرنان : ذهلت عن حرمة الموقف، ولكنني أتجاوز لسنّـك، وأعذر الحمية في مقتبل الشباب . فإن الملك الذي يصرف حكمته في الأمور المُثلى يبقي ابقاء الضنين على دم رعاياه . وما شأني في الحرص على أتباعي والاحتفاظ بهم إلا شان الرأس يعنى بالأعضاء التي تخدمه .

فالرأي الذي أدليت ليس هو الرأي في نظري .

انت تتكلم كلام جندي ، وعليّ ان أفعل فعل ملك ، ومهما يزعم الآخرون ، ومهما يدعِ الكنت فإن اطاعته لي لم تكن لتحطّ من عليائه، على ان إساءته قد مستني بإيذائها شرف ذاك الذي آثرته مرشداً لولدي ، فهو باستطالته على من اصطفيت استطال عليّ بالذات ، واقترف وزر الاعتداء على السلطان الأعلى .

حسبنا كلاماً في هذا المعرض . وقد بقي عليّ ان أقول ان عشراً من سفائن أعدائنا القدماء لوحظت رافعة أشرعتها ومجترئة على الاتجاه نحو مصب النهر .

دن ارياس : قد عرفك المغاربة بما عانوه من بلائك فيهم ، وأراهم لكثرة ما باؤوا بالفشل والاندحار لا يقدمون بعد على مناوأة قهّارهم العزيز .

دن فرنان : يعزّ عليهم ــ لا محالة ــ ان يروا صولجاني باسطاً ظله على أرجاء الأندلس ، وهم يرمقون بعين الغيرة هذا البلد الجميل الذي أضاعوه بعد ان طالت ولايتهم عليه ، فلهذا السبب الأوحد نقلت عرش قشتالة الى اشبيليا منذ عشر سنين ، بحيث يتسنى لي ان أراقبهم عن كثب ، وان اتدبر عاجلاً فيما يصدّ هجماتهم ويخلف ظنونهم .

دن ارياس : يدرون ، وقد أطارت الحرب أرفع هاماتهم ، ان شهودك الوقائع يضمن لك الفتوح ، فلا باس عليك منهم .

دن فرنان : وليس من الصواب ايضاً ان نسترسل في الاهمال فإن فرط الثقة مجلبة للخطر ، وما غاب عنك ان مدّ البحر يدنيهم الى هذا المكان بايسر مجهود ، على انه لا يجمل بي ان ألقي في القلوب هلعاً من الطوارق ولم تبدُ حقائقها فربما أحدث شيوع هـذا النذير هلعاً يزعج المدينـة في الليلة الآتية ، فمر عني بمضاعفة الحرس على الأسوار وفي الميناء ، وحسبنا هذا القدر في هذا المساء .

المشهد السابع

دن فرنان ، دن سنش ، دن النس

دن النس : مولاي ، قد مات الكنت ، ووتر دن دياج بيد ابنه .

دن فرنان : منذ علمت بالاهانة شعرت بهذا الانتقام ، وعمدت من ساعتي الى تدارك الفاجعة .

دن النس : بالباب شيمان وفُدت لترفع بثّها الى قدميك مستعبرة العينين تلتمس الانصاف .

دن فرنان : اني لأرثي لبلواها ، ولكن أباها لقي الجزاء الحقيق بجرأته، على انه خليق بها أن تحزن على الكنت ، وبي أنا ان آسف لفقدي قائداً عظيماً خــــدم مملكتي خدمة طويلة الأمد ، وسفك في سبيلي دمه في ألف معترك، فمع ما حركت نفسي من العوامل سورة كبريائه أجهر ان فقده يضعضعني ، وان موته يشجيني .

المشهد الثامن

دن فرنان ، دن دياج ، شيمان

شيمان : مولاي ، مولاي عدلاً .

دن دياج : آه يا مولاي اصغِ الينا .

شيمان : أترامى على قدميك .

دن دياج : أقبِّلُ ركبتيك .

شيمان : التمس النصفة .

دن دياج : استمع لدفاعي .

شيمان : عاقب ذلك الشاب الجريء على قحته ، فقد قوَّض ركن صولجانك . قتل أبي .

دن دياج : أخذ بثأر أبيه .

شيمان : الملك موكل بالعدل في دماء رعيته .

دن دياج : لا عقاب على الانتقام المشروع .

دن فرنان : إنهضا كلاكما لقد فسحت لكل منكما في إبداء ما عنده . شيمان ، أرثي لبلواك ، وأحسّ أن حزني عديل حزنك نتكلم فيها بعد ، لا تقطع عليها شكواها .

شيمان : مولاي ، أبي قُتل ، وشهدت عيناي دمه المسفوح يتدفق دفعاً كباراً من جنبه الكريم ، ذلك الدم الذي بذل مراراً لصيانة أسوارك ، ذلك الدم الذي اعلى كلمتك في المعامع .

ذلك الدم الذي خرج والدخـــان يسطع منه غضباً لانسفاكه في غير سبيلك .

ذلك الدم الذي لم تستطع الحروب أن تريقه في غمراتها قد جلّـل به لذريق بلاط قصرك .

هرعت خائرة القوة شاحبة اللون ، فوجدتـه فارق الحياة . اعذر توجعي، يا مولاي. عدمت الصوت لاستكمال هـذه القصة المروعة ، وكفى بدموعي وزفراتي إفصاحاً عن سائر ما جرى .

دن فرنان : ثبّـتي قلبك يا بُنيّـتي واعلمي اليوم أن الملك يريد أن يكون لك أباً مكان أبيك .

شيمان : مولاي ، بالغت في تشريف قدري بعد محنتي . لقـد تقـدم قولي انني وجدته بلا حراك ، كان جنبه فاغراً وكأنني بدمه يستصرخني ويخطّ لي على التراب ما يقتضيني من الواجب .

أو كأن تلك القوة التي رُدَّت الى البوار تخاطبني بجرحها لتستحثني على اللحاق بالغارم ، وتستعير من فم هـذا الجرح الأليم صوتي لإبلاغ ظلامتها الى أعدل الملوك . مولاي ، لا تُجيزْ أن يقع في عهدك وبمشهد منك مثل هذا الجرم ، وأن يستباح اولو البأس المبرزون لمجترىء عليهم يأمن العقـاب ، وأن ينبري شاب جسور فيهدم علياءهم ، ويشرب دماءهم ، ويلطخ ذكراهم ، فإذا لم تثأر لذلك الصنديد[1] الذي رزئته طفئت في النفوس حماسة الذين يخدمونك .

دع كل هذا . قتل أبي ، وأطالب بدمه لا للترفيه عني باكثر من الرعاية لجانبك . خسارة لك أن تحرم رجلا هذا شأنه ، فاثْـأر لموته بموت الجاني عليه ، وكافىء الدم بالدم ، وضحِّ بـه لتاجك لا لي ، بل قدّمه لعليائك بل لذاتك . ضحِّ يا مولاي لمنفعة الدولة بكل من يستطيل مثل هـذه الاستطالة .

---

(١) الصنديد : السيد الشجاع .

دن فرنان : دن دياج ، أجب .

دن دياج : أحرِ بالانسان الذي يعدم الحياة بانعدام عزيمته أن يغبطه الناس فقد يهيىء للكرام طول آجالهم بعد شوطهم المجيد المجيد ضعةً وهواناً ، أنا الذي ضمنت له فعاله الجسام ما شاءت من الفخار . انا الذي عقب على النصر بالنصر كل آن وآن . أراني اليوم لا ذنب لي إلا امتداد البقاء أتلقى الاهانة وألبث موسوماً بميسمها ، فما لم تنله مني ملحمة ولا حصار ولا كمين ، وما لم تستطعه أراغون وغرناطة ولا أعداؤك جميعاً ، ـ ولا حسّادي جميعاً ـ فعلَه الكنت في قصرك وعلى مدى بصرك غيرة من ايثارك اياي ، واعتداداً برجحان قوته على القوة التي سلبها مني تقادم سنّي .

فهذه اللّمة التي ابيضّت تحت خُوذة الكفاح ، وهذا الدم الذي بُذل غير مرة في سبيلك يا مولاي ، وهذا الساعد الذي كان يلقي الذعر في جيش أعدائك ، كل ذلك كاد ينزل معي الى القبر موصوماً بالعار ، لو لم ألد ولداً جديراً بالانتساب إلي ، خليقاً بإعلاء ذكر بلاده ، حقيقياً بالانتماء

الى ملكه ، أعارني ذراعه ، وصرع الكنت ، فنضح عن شرفي ، وغسل أوضار[1] عاري . فإذا كان إبداء الشجاعة، وشفاء غلة الحقد ، والانتقام من اللطمة في الوجه ، جناحاً يعاقب عليه ، فعليّ وحدي تقع التبعة .

يخطىء الزند فيعاقب الرأس ، وسواءٌ أعُدَّ ذنباً ما نتحاور فيه أم لا ، أنا يا مولاي الرأس ، وليس ابني إلا الذراع. تشكو شيمان من انه قتل أباها، وتالله ما كان ليودي به لو قدرت على الايداء به . فليضحَّ اذن بهذا الرأس الذي يلوي به الهرم ، وليبقَ الساعد الذي يضطلع بخدمتك . أرض شيمان بسفك دمي ، فقد طِبْتُ نفساً للاقتصاص مني ورضيتُ بالحكم عليَّ مهما بولِغَ في شدته ، إذ انني بموتي نقيّ الشرف ، أموت بلا أسف .

دن فرنان : المسألة ذات بال تدعو الى إعمـــال الروية ومشاورة المجلس دن سنش ، اصحب شيمان الى بيتها .

---

(١) الوضر : وسخ الدسم .

دن دياج يلزم قصري سجيناً فيه، رهيناً بعهده. ليؤت
بابنه سأنصفكِ يا شيمان .

شيمان : من العدلِ ايها الملك العظيم ان يُقتل القاتل .

دن فرنان : روّحي عنك يا ابنتي ، وسكني أحزانك .

شيمان : الأمر بالترويح عني يزيد أشجاني .

الفصل الثالث

المشهد الاول

دن لذريق ، الفيرة

الفيرة : لذريق ، ماذا صنعت ؟ الى اين تاتي يا منكود الطالع ؟

دن لذريق : جئت لأتابع سيري في طريق شقائي .

الفيرة : أنّى لك هذه الجرأة وهذه الخيلاء الجديدة ، وكيف تظهر في هذه الأمكنة التي ملأتها حداداً ، أجئت الى هنا تتحدّى طيف الكنت ؟ ألست قاتله ؟

دن لذريق : حياته كانت عاراً عليّ ، وشرفي سامَ يدي هذا البطش .

الفيرة : ولكن أتلجأ الى بيت صريعك ؟

وهل جرى ان قاتلاً اتخذ بيت قتيله موئلاً ؟

دن لذريق : إنما أتيته لأستسلم الى وليّ الدم فيه ، فلا تنظري اليّ بهذه

الدهشة . أطلب الموت بعد ان أعطيتُه . وغريمي هو غرامي ، وقاضيّ هو شيمان .

حقّ لي ان أموت حين أثَرْتُ حفيظتها [1] فوافيت ولا مطمع لي إلا سماع الحكم عليّ من فمها ، وتناول الضربة القاضية من يدها .

الفيرة : أولى لك ان تتوارى عن عينها ، وتفرّ من غضبها ، وتتقي سورة حزنها في بدء شبوبها . اذهب ولا تتعرّض للفورة الأولى ، وللنزوات [2] التي تدفعها اليها عوامل حقدها .

دن لذريق : لا . لا وهيهات ان يبلغ حنقها، والعذاب الذي ينالني منها، ما هو حقيق بأن يبلغه ، فإني لو قدرت على مضاعفة غضبها لتعجيل أجلي لاجتنبت مئة ميتة ستُعنّيني .

الفيرة : شيمان في القصر غـارقة في البكاء ، ولن تعود منه إلا مصحوبة بمن يُخشى بأسه .

فاهرب يا لذريق إني أسألك مستعطفة ، وأنقذني من هذه الحيرة ماذا يقول الذين قد يرونك الآن في هذا المكان،

---

(١) حفيظة : الغضب والحمية في الشيء الذي ينبغي أن يحفظ .
(٢) انتزى : تسرع إلى الشر .

أتريد ان يتهمها واشٍ – وفي ذلك نهـــاية بؤسها – بأنها
فسحت لقاتل أبيها ان يتحرم بحماها .
أزف معادها ... ها هي آتية ... أراها .
لأيسر الخطب على شرفها – يا لذريق – ان تختبىء .

المشهد الثاني

دن سنش – شيان – الفيرة

دن سنش : أجل يا سيدتي يجب ان تسفكَ دمـاءٌ عزيزة شفاء لغضبك المشروع ، وإرقاءً لدموعك .
ولست محاولاً بالاسهاب في الكلام تلطيف ما بك او تعزية قلبك، ولكن اذا تسنى لي ان أضطلع بخدمتك فاستخدمي سيفي للاقتصاص من المجرم ، واجعلي غرامي قـــاضياً لغُـرمك،فبامر منك يشتدّ ساعدي، ويأتي العجب العجاب.

شيان : واحربا !

دن سنش : أبتهل اليك ان تتقبلي مني ما أعرض من خدمتي .

شيان : أخشى تكدير الملك وقد وعدني بإنصافي .

دن سنش : تعرفين ان القضاء يسير سيراً بطيئاً ، فيغلبُ إفلات الجناة منه ، لكثرة مطاولته ، وذهاب الدموع هدراً من جراء ريبه ومهله . فاذني لفارس ان ينتقم لك بسلاحه،فيختصر طريق الثار ، ويعجل القصاص .

شيمان : هذا آخر علاج ، فإذا تحتم وظللتَ على هذا العزم وهذه الرقة لمصابي كان لك عندئذٍ ان تأخذ بثاري .

دن سنش : هذا أشهى ما تصبو اليه نفسي ، فأما وقد ساغ لي ان أرجوه فإنني أنصرف راضياً .

المشهد الثالث

شيمان — الفيرة

شيمان : يسرني بعد نفاد صبري ان أخلو ، وان أكشف لك بطلاقة ضميري ما في نفسي من أفاعيل الآلام . ففي وسعي ان أصعد زفراتي ، وان أظهرك على مكمن شجوني .

أبي مات يا الفيرة ، وأول سيف تقلده لذريق هو الذي صرم به حبل أيامه .

أبكي أبكي يا عيوني ، وسيلي دموعاً .

شطر من حيـــاتي قَذَفَ الشطر الآخر الى القبر .
وأكرهني بعد تلك الضربة القاضية على طلب الثأر للشطر
المفقود من الشطر الموجود .

الفيرة : استريحي يا سيدتي .

شيمان : آه توصيني بالراحة وما أبعدها عما يقتضيني رزئي الفادح.
من اين التمس تسكين ألمي في هذا المصاب الجلل ، وانا لا
أستطيع ان أبغض اليد التي سبّبته ومـاذا أرجو سوى
العذاب السرمد من تعقبي الاثم وانا أحب الأثيم .

الفيرة : أيتمك من أبيك ، وما زلت تهوينه !

شيمان : قليلٌ قولك انني أهواه يا الفيرة ، انا أعبده ، وهيامي به
يعارض حقدي ، هو العدو الذي أجد فيه الحبيب.وأحس
على ما بي من شديد الغضب انه في قلبي يقاتل أبي ، يهاجمه ،
يُحرجه ، يتاركه ، يذود عن نفسه : تارةً قوياً وطوراً
ضعيفاً ، وآناً منتصراً .

عراك قاس بين الغضب والصبابة يفطّر فؤادي ولا
يشطر نفسي ، للهوى ما له عليَّ من سلطان ، ولكنني لن

أتردّد في متابعة واجبي ، سامضي بلا توقف في ما يدعوني اليه شرفي .

لذريق حبيبٌ إليّ ، وهيامي به يشجيني، ينحاز قلبي اليه غير انني مرغمة على عدوانه ، وأعرف من انا ، وان أبي قد قُتل .

الفيرة : أتنوين تعقّبه ؟

شيمان : آه ، يا له من خاطر أليم ، ويا له من تعقب أمعن فيه على الكره مني . أطلب رأسه وأخشى ان أعطاه .ساموت على أثره وأريد ان اقتصّ منه .

الفيرة : دعي ، دعي يا سيدتي هذا المطلب الفاجع ، ولا تسومي نفسك شَرْعاً تَناهى في جفوته .

شيمان : كيف تقولين ؟ أيقضي أبي وكأنه قد قتل بين ذراعي فيستصرخني دمه للانتقام ولا استمع لصراخه ؟

أيظن قلبي وقد أسرْته عوامل صبوته ان حقّ أبي عليه يوفى بدموع لا تجدي ؟ وهل أتحمّل غراماً خادعاً يعوقني جبْناً عن بثّ ما بي ويخنق شرفي ؟

الفيرة : صدقيني يا سيدتي انك أبليتِ العُذر ، فلا تشتدي كل هذه الشدة على من تحبين .

كلا كما عاشق ومعشوق . ولقد فعلت ما في وسعك ، رفعت أمرك الى الملك فلا تستعجلي حكمه ، ولا تتمادَيْ في ما يزعجك من هذا التناقض الغريب .

شيمان : لا يسلم شرفي إلا بأن أثأر له، ومعاذير الهوى حجة للمبتلين به ، على انها مخجلة للقلوب النبيلة .

الفيرة : ولكنك تحبين لذريق وهو لم يكن ليغضبك .

شيمان : أعرف ذلك .

الفيرة : وبعد فماذا ترين أن تفعلي ؟

شيمان : للاحتفاظ بشرفي وللنجاة من همي ، سأنتصف منه فافقده، وأموت على أثره .

المشهد الرابع

دن لذريق ، شيمان ، الفيرة

دن لذريق : إيهاً ، لا تجشمي نفسك عناءَ تعقبه ، واضمني لها شرف الإيداء به .

شيمان : الفيرة !! أين نحن ؟ وماذا أرى ؟

لذريق في بيتي ... لذريق أمامي ؟

دن لذريق : لا تبقي على دمي ، وتذوّقي لذة قتلي ، والانتقام مني غير مُدافعة .

شيمان : ويحي !

دن لذريق : اصغي إليَّ .

شيمان : أحْتَضِر .

دن لذريق : امنحيني هنيهة .

شيمان : اذهب ودعني أقضي نحبي .

دن لذريق : أربع كلمات ولا أزيد ، ثم لا تجيبيني إلا بهذا السيف .

شيمان : وا حرباً ، أبهذا السيف ، وما زال بليلاً بدم أبي .

دن لذريق : يا شيماني ...

شيمان : وارِ هـذا الشيء البغيض فهو يزيد جرمك وإبقاءك قبحاً في عيني .

دن لذريق : بل انظريه واستفزي بـــه بغضاءك ، لتضاعفي غضبك وتعجلي في الأخذ مني بطائلتك .

شيمان : انه مضرج بدمي .

دن لذريق : غيّبيه في مهجتي ، وأزيلي منه صِبْغ دمك .

شيمان : آه من جفوة طبعك ، في يوم واحـــد تقتل الأب بالسيف

والبنت بمرآك ، وارِ هذا الشيء ، لا أطيق رؤيته ، تريد أن أرعيك سمعي ، وأنت تزهق روحي .

دن لذريق : افعل ما تأمرين به على أن أختم بيدك حياتي الشقية وحاشا كلفي بكِ أن يداخله الجبن ، فأندم على فعل كان حميداً . فتكة أعجلهـــا الحمق عن تقدير العواقب ، وصمَتْ أبي وكستني عاراً ، وتعلمين ما أثر اللطمة في النفس الكريمة ، لحقني ما لحقني من الوصمة فبحثت عن مقترفها ، فرأيته فانتقمت لشرفي وشرف والدي ولو وجب أن أعاود لعاودت ، على أن غرامي نازعني طويلاً فقاومت والدي ونفسي في سبيل حبك ، وحسبك منه ، على جسامة تلك المساءة ، أنـــه تركني حيناً أشاور نفسي في الاقدام أو الاحجام، فلما وازنت بين اغضابك او تحمل الشنار أيقنت أن زندي سبق العذل[1] بزماعه[2] ، وشكوت من حدة في طبعي جازت مداها ، ولا شك أن جمالك كاد يرجح بكفته في الميزان لو لم ادفع سطواته بما مرَّ في خاطري وهو أن رجلاً عطِل من شرفه لا يكون لك أهلاً ، وان التي

(١) العذل : الملامة واعتذل الرجل على الشيء : اعتزم .

(٢) الزماع : المضاء في الأمر والعزم عليه .

أحبتني حراً كريماً ستبغضني جباناً لئيماً مع ما لي في قلبهـا من المكانة الرفيعة وانني لو أطعت هواك وصبرت على الهوان لأصبحت غير خليق بعطفك ، وأخلفتِ بي حسن ظنكِ .

أعود فاقول لك ـ وعلى ما بي من حزن وجزع ـ سأعود وأقول لك الى آخر نسماتي ـ انني أسأت اليك ، وأكرهتُ على هذه الإساءة ، لأمحو عاري وأكون أهلاً لك فاما وقـد وفيت دين الشرف ، وقضيت حق أبي ، فإنني الماثل لديك متوخياً مرضاتك ، فقد سعيت اليك لأقدم لك دمي مؤدياً ما يجب كما أديت ما وجب .

ولعلمي أن أباً مات يستفزّك للاقتصاص من ذنبي أبيت أن أخبأ غريمك ، فاقدمي وضحي لدمه بدم فتى يفاخر بانه هو الذي أراقه .

شيمان : آه... اني وان كنتُ عدوتك لا أستطيـع ملامك، لفرارك من العـار ، وعلى تنوع الألوان التي أذوقهـا من العذاب لا أشكو منك بل أبكي لمصائبي .

اعرف ما كان الشرف، وقد مسَّته تلك الشنعة ، يدفع اليه قلباً تحتدم فيه الحماسة .

فانت لم تفعل إلا ما يفعله الفتى الأبر، بيد أنك بحرصك على واجبك علمتني الحرص على واجبي .

اقدامك المشؤوم، والنصر الذي أحرزته أدّباني ، فقد ثأرت لأبيك وصنت شرفك ، ومثل ما عناك من أمرك يعنيني من امري ، اذ ان لي شرفاً اصونه ، وأباً انتقم له ، يا ويلتي ، ان حبي لك هو الذي يؤيسني في هذه المعضلة ، ولو ان مصاباً آخرَ أيّمني لوجدت نفسي في سرورها بلقائك سلوانها الأوحد، وعزاءها الأوفى ولَهان عليّ العسير من ألمي حين تمتد إليّ يد عزيزة وتكفكف عبراتي . ولكن كُتب عليّ ان افقدَك بعد ان فقدته ، فكفاحي لغرامي دين عليّ لشرفي ، وذلك الواجب الذي يُودي بي أداؤه يضطرني الى العمل بنفسي على ثبورك .

فلا ترتقب من شغفي بك ان يعوقني عن أخـــذك بجريرتك ومهما يشفع لك حبي فلا مناص لعزة نفسي ان تكافىء عزة نفسك .

لقد أبديت بإساءتك إليّ انك جدير بي فحُتِم علي وانا أطلب قتلك ان اكون خليقة بك .

دن لذريق : لا تؤجلني إذن ما يدعوك اليه الشرف ، فهو يطلب رأسي وانا أهبك إياه ، فاجعليه قرباناً لمـــا يتخالجك من المآرب السامي . يعذب لدي وردُ الردى ، ويسهل عليّ حكمه،اما انتظارك بعد إجرامي الى ان يقضي القضاء فتقصير في حق مجدك وإطالة لتعذيبي،وغاية سعادتي ان أموت بضربة من يدك الجميلة .

شيان : إني لخصمك واست بجلاّدك ، تُقدّم لي رأسك ومـا عليّ ان آخذه ، شاني ان أصوّب اليه طعناتي ، وشانك الذود عنه وإنما أطلبه من غيرك لا منك ، عليّ مناجزتك [1] ، وما عليّ عقابك .

دن لذريق : دعي شفاعة الحب فيّ لديك ، وارجعي الى كرم عنصرك فأجزيني من نفسي ، يأبى ذلك الكرم يا شياني ان تستعيري ساعد غيرك للانتقام مني ، يدي هي التي أخذت بثأر أبي ، وما أحرى يدك دون سواها ان تأخذ بثأر أبيك .

شيان : لك الله من قاس،علامَ هذا الاصرار، قد انتقمت بلا معين، وتعينني على الاقتصاص منك ، لأقتدين بقدوتك ولاصبرن

(١) ناجزه : بارزه ، وقاتله .

حتى أقاسمك فخر الانتقام ، لا أبي ولا ساعدي يقبلان بفضل حبك او يأسك .

دن لذريق : وا حر قلباه من خلاف رأيينا في أمر الشرف، الا أستطيع ـ جاهداً ما جاهدت ـ ان أظفر منك بهذه المنة ، بحق أبيك القتيل ، بحق مـا بيننا من الوداد عاقبيني تشفياً ، او عاقبيني رحمة واشفاقاً ، فإن عاشقك المنكود الطالع ليؤثر الموت بيدك على البقاء وتبغضيه .

شيان : رُح فلست، لك بكارهة .

دن لذريق : كان حقاً عليك ان تقتيني .

شيان : ما بيدي .

دن لذريق : الا تبالين الملام وسوء المقالة ، اذ يعلم الناس بأن ذنبي اليك لم يذهب بحبك لي ، ماذا تشيع عنك يومئذ ألسنة الوشاة الحساد ، أكرهيهم على السكوت ، وتخلي عن الحوار ، فانقذي سمعتك بقتلي .

شيان : ما ازداد إلا حسنَ أحدوثة[1] بتركك حياً ، وبودي ان يرتفع صوت النميمة من أعماق ظلماته ، فهو اذن سيرفع

(١) الأحدوثة : ما يتحدث به .

الى السماء كرامتي ، ويستلين ـ حتى الوشاة ـ لجزعي إذ يعلمون انني أعبدك واستعدي عليك ، فَولِّ ووارِ عن عيني السخينة من الحزن ذلك الانسان الذي سأفقده على انني أحبه ، أخرج في سرٍّ من الناس تحت الليل ، وحذار ان يروك فيتجنّوا على شرفي وليس للسعاية نهزة تنتهزها إلا ترخصي في لقائك هنا فلا تجعل لها سبيلاً الى الريب .

دن لذريق : تباً لي !

شيان : اذهب .

دن لذريق : علامَ عزمتِ ؟

شيان : اني وان كانت شُعل الغرام تشغلني عن حنَقي ، سأبذل ما في وسعي للأخذ بثار والدي، ومع ما يقتضيني اداء هذا الواجب من الصلابة ، فإن أمنيتي الوحيدة هي ألا أقدر على شيء .

دن لذريق : يا لأعجوبة الغرام !

شيان : يا لنهاية البؤس !

دن لذريق : ماذا سامنا أبوانا من العبرات والحسرات .

شيان : لذريق ، من كان يظن ما أفضينا اليه ؟

دن لذريق : ومن كان يتنبأ ؟

شيان : بأن سعادتنا وهي على وشك إبرامها تنقضي .

دن لذريق : وان أملنا على مقربة من الميناء، وفي تمام الصفاء يسطو عليه عاصف مفاجىء فيحطمه .

شيان : آه من الآلام المهلكة !

دن لذريق : آه من عبث الأسف !

شيان : اليك عني . اليك عني . لن أصغي اليك .

دن لذريق : أستودعك الله . سأمضي لأعاني حياة خيرٌ منها الحِمَامُ ريثما يسلبنيها القضاء بخصومتك .

شيان : إذا تحقق مرامي فعهدي اليك انني لا أرضى بالبقاء بعدك هنيهة . وداعاً . اخرج واحرص ان يراك أحد .

الفيرة : سيدتي . مهما يَحِق بنا من الكوارث ...

شيان : لا تزعجيني بعد ، دعيني أتنفس الصعداء ، إنما تعلتي السكون ، وحاجتي الليل أبكي تحت أستاره .

المشهد الخامس

دن دياج

دن دياج : لن يتسنى لنا ان نذوق غبطة غير مشوبة ، ولا تتحقق أمانينا إلا وتخالطها الكآبة ، فكلما واتتنا حوادث الدهر تخللها من الهموم ما يكدر علينا صفو مسراتنا .

قد تمت لي الهناءة وريب الزمان ينغصها عليّ . أسبح في بحر من الابتهاج وأرتعد من الخوف. رأيت العدو الذي أهانني قتيلاً،وليس بوسعي ان أرى اليد التي ثارت لي منه، أبحث عن ولدي معملاً فكري في طلبه ولا أجده ، ومع كوني متداعياً على حقوي أنشده في كل مظنة بالمدينة، أذيب ما أبقتْ لي الأيامُ من الهمة الواهية في ابتغاء نظرة أنظرها الى هذا الظافر ، في كل ساعة وفي كل مكان تحت هذا الظلام الدامس أتخيل انني أعانقه فما أعانق إلا طيفاً ، فيخيّب أملي هذا التصوّر الخادع ، وتُخْلَق فيّ أوهام تضاعف وَجلي، ولا أقف على أثر لفراره ، أخاف عليه من أصدقاء الكنت وأتباعه فهم غير قليل وكثرتهم تبلبل ذهني.لذريق

إما قتيل واما سجين يا لله ... مخدوع بصري بما يلوح لي ،
او هو سليلي ووحيدي وأملي أراه مقبلاً. لا ريب انه هوه.
استجيبت أدعيتي وزالت مخاوفي وهدأت أشجاني .

المشهد السادس

دن دياج ، دن لذريق

دن دياج : لذريق . حمداً لله ، ما كان أظمأني الى رؤيتك .

دن لذريق : واأسفاه !

دن دياج : لا تمزج حزناً بسروري ، وامهلني حتى ينطلق لساني بالثناء عليك، فقد وقفتَ من البسالة موقفاً لا تنكره عليك بسالتي ، وحذوتَ حذوي بجرأتك الباهرة . لقد بُعِثَ بك أبطال يُباهي بهم مَحتدي [1] ، منهم تحدرتَ ومني تلقيت الحيـــاة ، ضربة منك وهي الأولى عادلت جميع ضرباتي ونمّت عن صدق حميّتك، واتقاد عزيمتك، فبلّغتكَ في أول بلاءٍ غايةَ شهرتي ، يا ركن شيخوختي ويا ذروة

(١) محتدي : أصلي ، شرفي .

سعدي ، ألمسْ هذه اللمة البيضاء التي أعدتَ اليها كرامتها.
تعال قَبِّل هذا العارض واعرف المكان الذي نضحت عنه
فمحوت أثر الوصمة منه .

دن لذريق : ذلك الشرف اليك مرجعه، انني لَسليلُكَ وربيب نعمتك
وما كنت لأفعل أقل مما فعلت، فأنا مغتبط بما أرضاك عني
ويزيد اغتباطي ان ضربتي الأولى قد أعجبت من أحسن
اليّ بالحياة . ولكن أجزْ لي بين مسراتك ــ ولا تأخذك
الغيرة ــ ان أجسر وأنفّس من كربتي ، وأذن لياسي ان
ينطلق من مكمنه ما جهدت في كلامك من تهوينه عليّ ، ما
بي من ندم على ما قدّمتُ من خدمتك ، ولكن أعِدْ اليّ
النعيم الذي سَلَبَتْهُ مني هذه الفتكة ، تسلّحَ ساعدي
لثارك ولم يَعُقْهُ غرامي ، فضرب الضربة وقد آبَ منها
بفخار ، ولكنه أودى بنفسي ، فلا تزدني حديثاً . قد
خسرت من أجلك كل شيء ، وكل ما كنتُ به مديناً لكَ
قد رددتُه عليك .

دن دياج : ارفع الى غاية أسمى ، آية ظفرك ، أعطيتك الحياة وأعدتَ
الي الشرف ، فبقدر ما يفضل شرفي الحياة عندي رجح
فضلك عليّ اليوم فضلي عليك بالأمس ، فأحر بك ان

تستأصل هذه النزعات الضعيفة من قلبك النبيل ، ليس لنا الا شرف واحد . أما المعشوقات فما أكثرهنّ ، إنما الحب متاع ولكن الشرف واجب مقضي .

دن لذريق : ويحي . ما تقول ؟

دن دياج : أقول ما ترغب في معرفته .

دن لذريق : أما كفاني ان انتقامي لشرفي جاء انتقاماً مني حتى تسومني تبديلاً في هواي،الخيانة في الحب من شيمة المحارب الرعديد والعاشق الغادر، فلا تلحق بوفائي ظنّة تَمسّه، واعتددني كريم النفس ، ولا تسمْني النكث بالعهد . لعلاقتي أمكن من ان تنفصم بمثل ما تصف ، ولو فاتني فيها الأمل ، لكن بذمتي مدعاة الى الحفاظ ، فاما وانا من هواي بحيث لا أملك شيمان ولا أطيق عنها صبراً،فقد أصبح الموت ــ وهو مبتغاي ــ أخفّ آلامي .

دن دياج : لم يحن الوقت لتلتمس الحِمام ، فإن مليكك ووطنك في حاجة الى ذراعك. الأسطول الذي ذاع نبأه قد دخل الميناء متوهماً انه يفاجىء المدينة وينهب البلاد .

سيهبط المغاربة ويهاجمون اسوارنا بلا جلبة مستعينين بمد البحر و مَدَد الظلام . القصر في اضطراب والشعب في

هلع ، لا يُسمَع إلا صخب ، ولا يرى إلا دموع ، وفي هذه الفوضى العامة أتاح لي التوفيق ان وجدت في بيتي خمسمائة من أصحابي ، قدموا جميعاً حين علموا بما حلّ بي، يحدوهم الولاء ، ليعرضوا عليّ الأخذ بثاري ، على انك سبقتهم ولكن سواعدهم الشديدة تؤثر الاصطباغ بدماء البربر ، فامض وسر على رأسهم الى حيث الشرف يهيب بك ، ان عصابتهم الكريمة لتأبى سواك زعيماً . اذهب وذُد صدمة أولئك الأعداء القدماء، فإن أردت الموت فالقه هناك كريماً انتهز هذه الفرصة وقد سنحت لك ، واقرض مليكك سلامته بتهلكتك بل عد من ذلك العراك وعلى جبينك الغار ولا يُقصَرْ مجدك على الانتقام من اساءة ، بل توخَّ له غاية أبعد ، وأكره بشجاعتك ذلك الملك على الغفران وشيمان على السكوت ، وإذا كنت محباً لها ، فاعلم ان عودَك مستظهراً هو الذريعة المثلى لتملّك قلبها . على ان الوقت أعزّ من ان يضاع في الكلام . دعنا من الإطالة وطرْ الى المعترك . تعال اتبعني . سر الى القتال وأرِ المليك ان ما فقده بالكنت يجده فيك .

الفصل الرابع

المشهد الأول

شيمان ، الفيرة

شيمان : أليست اشاعة مكذوبة ؟ أأنت على يقين يا الفيرة ؟

الفيرة : لا تكادين تصدّقين ما بلغه من إعجاب الناس ، فهم بصوت واحد يرفعون الى السماء شهرة هـذا البطل الفتى وفخر مواقفه . لم يظهر المغاربة أمامه إلا ليبوؤا بالفشل المخجل ، سرعان ما وفدوا وسرعان ما انهزموا . دام القتال ثلاث ساعات ، فتركوا لأبطالنا الكلمة العليا ، وخلفوا ملكين أسيرين ، وكان إقدام ذلك لا يدع عقبة إلا ذللها .

شيمان : ويد لذريق هي التي أتت تلك الآيات ؟

الفيرة : كان ذانك الملكان ثمناً لبلائه الحسن ، يده قهرتهما ويده أسرَتهما .

شيمان : من اين سمعتِ هذه الأنباء المدهشة ؟

الفيرة : من الشعب الذي يتغنّى بشجاعته في كل مكان ، ويصفه بانه موطد عزّه ومجدّد فخره ، ويدعوه بحارسه الأمين ومنقذه .

شيمان : وماذا يرى الملك في هذا الإقدام الرائع ؟

الفيرة : لم يجسر لذريق ان يمثل في حضرته ، ولكن دن دياج سيقدم له الملكين الأسيرين ، وسيلتمس من سماحته وكرمه ان يتفضّل ويأذن لحامي حماه بلقائه .

شيمان : ولكن ألم يجرح في الكفاح ؟

الفيرة : ألم أعلم بشيء من هـــذا . أراك ممتَقَعة الوجه . عودي الى رشدك .

شيمان : ولأعُد أيضاً الى حنقي الذي هـدأت فورتُه ، فهل عليَّ للاعتناء به ان أنسى واجبي ؟

يمدحونه ويحمدونه . قلبي عن ذلك راض ، وشرفي صامت ، وهزتي للواجب وانية .

فصهِ يا غرامي . دع غضبي يفعل أفاعيله ، لئن كان قد أسر ملكين ، لقد قتل ابي . وهذه الثياب السوداء التي أقرأ فيها آية يُتْـمي هي الهدايا الاولى التي أهدتها إليَّ عزيمته الماضية . ينعت الناعتون في الخارج قلبه النبيل .

ولكن كل شيء حيالي يذكرني جريمته .

ألا أيتها الأشياء التي تهيج فيَّ الضغينة من مقانع وحرير وثياب هي زينة الحداد . وأنت أيتها المفاخر والمظاهر التي تحدثها نصرته الأولى أديلي[1] لجدي من غرامي ، فاذا غلبتني الصبابة على أمري فراجعي فكرك وأذكريني واجبي الأليم واطعني غير هيَّابة موقع تلك اليد القاهرة من نفسي.

الفيرة : هدِّئي روعك ، قد وفدت بنت الملك .

---

(١) أدال الشيء : جعله متداولاً تعاقب به .

المشهد الثاني

بنت الملك ، شيمان ، ليونورة ، الفيرة

بنت الملك : لست قادمة اليك لتسكين آلامك بل لأمزج زفراتي بزفراتك ، ودموعي بدموعك .

شيمان : أحرى بك يا مولاتي أن تصيبي قسطاً من السرور العميم ، وأن تذوقي السعادة التي جاءتك بها العناية .

ما لغيري ان يحزن في هذا الوقت، فقد استطاع لذريق ان ينقذنا من الخطر ، وردّت عليك أسلحته أمن البلاد وسلامتها ، فأنا وحدي اليوم يجوز لي ذرف العبرات . حمى المدينـة وخدم مليكه ، ولم يكن بأس ساعده بؤساً على غيري .

بنت الملك : أي شيماني ، في الحق إنه أتى معجزات .

شيمان : لقد طرقت اذني هـذه الأنباء المكدرة ، وينتهي الى سمعي ما يذاع عنه في كل مكان من انـه بالغ من السعادة في الحرب مبلغه من الشقاء في الحب .

بنت الملك : وماذا يسوءك من هذه الأحاديث الشعبية ، فإن البطل الذي تطريه قد أعجبك من قبل ، وكان يملك فؤادك ، ويعيش تحت أحكامك ، فالإكبار لشأنه إنما هو تشريف لاختيارك .

شيمان : لكلٍّ ان يثني عليه ولا حرج ، اما انا فاجد في ذلك الثناء تجديد العذاب ، ويزداد المضض في نفسي بقدر ما يُعلون من شأنه إذا قيس ما خسرت بمقياس ما له من القدر . ما أنكأ هذه الأشجان في لبّ الفتاة المتيّمة !

كلما ازدادت معرفتي بمناقبه ازداد شغفي به ، غير ان واجبي ما زال هو الأقوى،وسيتعقبه الى ان يأخذ لي حقي على غرامي به .

بنت الملك : بالأمس رفعك هذا التشبث بهذا الواجب الى مقام عليّ وبدا لأهل العصر من نبل مجهودك وحسن جهادك لنفسك ما ملأ قلوبهم إعجاباً بك ورثاء لصبابتك ، ولكن هل لك ان تنتصحي بنصح ودّيّ صادق ؟

شيمان : من الإثم ألا أطيعك يا مولاتي .

بنت الملك : ما كان بالأمس حقاً ليس اليوم بحقّ . قد أصبح لذريق

سندنا الأوحد ، واليه اتجه الهوى والأمل من شعب يعبده ، فهو أمنُ قشتالة وخوف المغاربة . للملك نفسه من عـــالي الرأي فيه ما لأمته .

وكلهم مُجمع على حقيقة هي ان أباك قد بُعث فيه وحده واذا رغبت في بيـان أصرح أوجزت لك بكلمتين : انك بإصرارك على اهلاكه تهدمين سمعتك في البلاد،إذ يقولون : أمن أجل الانتقام لأبيها تدفع باوطانها الى أيدي أعدائها ؟ أمشروع منك ان تطالبي بما فيه بوارنا ؟

وهل نحن ضربنا بسهم في الجناية عليك ؟ لا أزعم انك على هذا مضطرّة للاقتران برجل كنت تطالبينه بدم أبيكِ بل أود لو استطعت ان أزيلَ من نفسكِ هـذه المـكابرة . ذودي عنه غرامك ، ودعيه لنا حياً .

شيمان : آه ! ليس من شأني ان أسعه برحمتي،وليس واجبي بالمطلب الذي يحصره حيّـز. نعم ان قلبي يشفع لهذا الظافر وان لنا شعباً يعبده ، وملكاً يلاطفه ، ولكنني لو أحاط به أبسل المحاربين لأويتُ الى ظل السَّرْو الذي أدفن فيه،وسوّدتُ بغاره أكاليل غاره .

بنت الملك : انها لمكرمة منا ان نبغي الانتقام لأب نبرّ به ، فنطلب في ديته رأساً يعزّ علينا ، غير اننا نأتي مكرمة أسنى وأسمى عندما نبيح دمنا خدمة للأمة .

لا وصدقيني انك اذا أطفأت لاعج[1] هواك، وسرحته من فؤادك عاقبته أشدّ العقاب ، ليَسمُكْ حبك للبلاد هذا التجاوز ومع ذلك ماذا تظنين ان يمنحك الملك ؟

شيمان : له ان يمنع ، ولكنني لا أستطيع الخنوع .

بنت الملك : فكّري ملياً يا شيماني في شأنك ، أستودعك الله وأدعك تتروّين في أمرك على مهل .

شيمان : بعد ان قتل أبي لا خيار لي في امري .

---

(١) اللاعج : الهوى المحرق .

المشهد الثالث

دن فرنان ، دن دياج ، دن ارياس ، دن لذريق ، دن سنش

دن فرنان : أيها الوارث الكريم لأسرة عريقة في المجد كانت وظلّت على الأيام فخراً وذخراً لقشتالة . يا خير سليل لأجداد اشتهروا بإقدامهم .

لم يَجُل جولته الاولى في مضمارهم حتى بلغ شأوهم .

ليت لي من القدرة ما احسن به جزاءك .

وهيهات ان يفي ما لي من الطّول بما لك من الاستحقاق.

ثنيتَ عن البلاد عدواً قويّ الشكيمة ، وثبّتّ بيدك صولجاني في يدي . دحرتَ المغاربة ولما يبدُرْ مني أمر بصدٍّ هجماتهم وردّ غاراتهم ، فلم تبقِ تلك الهِمم لربّ هذا المُلْك ذريعةً ولا أملاً ان يقابل احسانك باحسان . ولكن ملكين أسرتهما سيكونان ثوابك ، فقد دعواك في حضرتي بالسيد والسيد في لغتهما يعني الغطريف الصنديد ، فلن أنفِسَ عليك شرف هذا اللقب .

كن منذ اليوم السيّد ، وليخضع كلٌّ لهذا الاسم العظيم وليغمر من الرعب غرناطة وطليطِلة، وليدلل جميع الذين يشملهم سلطاني على ما انت به خليق، وما انا به لك مدين.

دن لذريق : ليتفضل جلالة مولاي ويقتصد في اخجالي ، انك لتسدي إليّ من الثواب ما تقصر دونه خدمتي وتستحييني تجاه هذا العاهل العظيم من قلة ما أجدر به من الالطاف ووفرة ما يعطي ، وما انا من يجهل حق المُلْك وحق سعادته على الدم الذي يحركني والهواء الذي اتنسمه . فلو وهبتهما في التماس ذلك المآرب الأسمى لم أقم بأكثر مما يجب على كلٍّ من التبع .

دن فرنان : ليس كل من يدعوه هذا الواجب الى خدمتي بمضطلع بها كما اضطلعت ، ومُبدٍ من البسالة ما أبديت .

واذا الشجاعة لم تفضِ الى الافراط في المغامرة لم يُدرك بها مثل هـذا النجاح ، فلا يشقّ عليّ ان تمدح ، وصِف لي بإسهاب ما كان من أمر هذا الفوز المبين على حقيقته .

دن لذريق : علمتَ يا مولاي حينما ألحّ الخطر ، وألقى في المدينـة من الرعب ما ألقى، ان عصابة من الأصدقاء التقت لدى والدي،

ورغبت إليّ في زعامتها على ما كان لي من الاضطراب ولكن يا مولاي اغتفر لي بدءاً ان اجترأت على تسييرها من غير اذنك فقـــد وضح عذري ، إذ كان الخطب داهماً ، والعصابة متأهبة ، فلو جئتٍ القصر لكان رأسي عرضة للسقوط . ولمّا لم يكن لي بدٌّ من فقده ، آثرت أن افارق الحياة مجاهداً في سبيلك .

دن فرنان : اعذر زماعك في الانتقام لأبيك ، وهـذا ملكي الذي سددت ثغره يخاطبني في الدفـاع عنك ، فأيقن أن شيمان ـ قائلة ما قالت بعـد اليوم ـ لن تسترعي سمعي ، ولن أعمـد إلا تعزيتها . امضِ في حديثك .

دن لذريق : سارت تلك العصابة تحت إمرتي وعلى وجوهها آية ثقتهـا بانفسها . كنا خمسمائة فما حصلنا في الميناء حتى تمت عدتنا ثلاثة آلاف من أناس رأونا نمشي الى الكفاح بتلك الوجوه الصباح ، فعاودت الشجاعة من زايلته منهم. خبأت ثلثيهم منذ أدركنا المرفأ في بطون المراكب التي كانتَ راسية ، وأقررت الآخرين ومن توافد على الولاء من الأعوان،فلبثوا حيالي متحرّقين الى الصدام ، لاصقين بالثرى، لا يسمع لهم

دويّ ولا رِكز ، يمر بهم الهزيع تلو الهزيع من تلك الليلة الشائقة . كذلك توارى بأمري العسس[1] لازمين كمينهم لاستكمال الحيلة ، وفي كل ذلك زعمتُ انني تلقيت منك الأمر ، فامتثلته ونقلته اليهم جميعاً .

لم تعتّم تلك الأنوار الضئيلة التي تتحدّر من الكواكب ان أرَتنا ثلاثين شراعاً يقدمها مدّ البحر . طغى الموج تحت المراكب ورمى بالمغاربة والقوارب ، فتركناهم يجوزون لا يتحرك منا ساكن ، ولا يبدو لهم حرسي في الميناء ولا جندي على أسوار المدينة . خدعهم صمتنا ، وانقطاع الأنفاس ، فلم يشكّوا في انهم اخذونا على غِرّة .

دنوا من البر بلا حذر ، وألقوا مراسيهم وتدفقوا متراكضين ــ وما يظنون ــ نحو أيدي القنّاصة الراصدين ، فهببنا عندئذ إلباً[2] واحداً ، وقرعنا اسماعهم بألف صوت جهير ، وصدعت عنان السماء صيحة رائعة ردّدها رجالنا الكامنون في مراكبنا ، ثم اقبلوا مدججين ، فاختلط حابل

---

(١) العسس : الذي يطوفون بالليل يحرسون الناس .

(٢) إلباً : (الألب) القوم تجمعهم عداوة واحد .

البربر بنابلهم وأخذتهم الرعدة قبل ان يتم نزولهم وشعروا بهلاكهم قبل المقاتلة .

أوضعوا وأخبّوا يبغون النهب،فإذا هم يلاقون تعبئة حرب ، فأحرجناهم على الماء ، وزحمناهم على البر، وأجرينا من دمائهم أنهاراً قبل ان يقاوم احدهم او يرجع الى صفه ، غير ان امراءهم لم يلبثوا ان ضموا شتاتهم فبُعثت الشجاعة فيهم ، وزالت مخاوفهم ، وغلب الحياء عليهم من لقاء الحمام قبل الصدام ، فتألفوا من اختلاط ، وراجعتهم بسالتهم ، فصمدوا الينا بأقدام ثابتة ، وامتشقوا سيوفهم ودرّ من دمائهم ودمائنا مزيج يعج متلاحماً ، فإذا البحر والنهر واسطولهم والميناء حومات(١) المتناحرين ، تتبارى بينهم المنايا .

شهد الله كم كرّ وكم اقدام لم يشهد روائعها إلا الظلام . إذ يفتك كل فاتك قدير ولا شاهد له الا نفسه وما يدري اي منقلب ينقلب الجلاد في عقباه . وكنت اتجه كل متّجه

---

(١) حومات : حومة القتال أو البحر أو الرمل معظمه، حومة الموت : هجومه .

مشجعاً رجالنا. ادفع اناساً آخرين وأسلك القادمين للنجدة في الصفوف وأظاهرهم ثم أرمي بهم الى الأمام ، فلم أتبين نتيجة القتال الا طلعة الفجر . تالق الضياء فكان الإقبالُ في جانبنا، ورأى المغاربة سوء مصيرهم، فَفُتّ في سواعدهم وراعهم تقاطر الأعوان الينا في اثر الأعوان ، فغلب خوف المنون على الرغبة في الاستظهار ، وتراجعوا الى مراكبهم يقطعون مراسيها ، ويجارون جارات دوّت أصداؤها في الآفاق . ثم نكصوا على الأعقاب غير مبالين مـــا آل اليه مليكاهم المتخلّـفان ، صدفهم الهلع عن الصبر للواجب ، وكما أدناهم المدّ منـــا أقصاهم الجزر عنا ، على ان مليكيهم ظلا مشتبكين بنا والى جانبهما جنود مثخنون جراحاً، يكافحون كفاح الصناديد ، ويبيعون أعمارهم باغلى الأثمان ، فاهبْت بهما غير مرة أدعوهما الى التسليم ولكنهما أبياه والسيفان مصلتان ، حتى اذا رأيا فلول جيشهما صرعى مجدلين ولبثا منفردين لا يغني منهما الجـلَد ولا المكابرة طلبا الزعيم . فتسميت لهما ، فسلما ، فسيرتهما كليهما اليك في آن وانتهى القتال بفناء المقاتلين .

على هذه الصورة تصدّيت للخدمة ...

المشهد الرابع

دن فرنان ، دن دياج ، دن لذريق
دن ارياس ، دن النس ، دن سنش

دن النس : مولاي ، شيان تلتمس المثول لعرض شكواها .

دن فرنان : خبر سيّىء وواجب ثقيل !

انصرف، لا أريد إكراهها[1] على رؤيتك،ويتعين عليّ بدلاً من الشكر ان أقصيك الآن عن حضرتي ، ولكن قبل ان تخرج تعالَ ليُقبّلك الملك .

(دن لذريق يخرج)

دن دياج : شيان تتعقبه وتود نجاته .

دن فرنان : قيل لي انها تهواه ، وساختبر هواها ، أرها عيناً مكتئبة .

(١) أكره فلاناً على الأمر : حمله على أمر يكرهه .

المشهد الخامس

دن فرنان ، دن دياج ، دن ارياس ، دن سنش ، دن النس ، شيمان ، الفيرة

دن فرنان : لك البشرى وان أبطأتِ يا شيمان ، فقد نجّح الله قصدك وقضى لك وطراً . انتصر لذريق على أعدائنا ، ولكنه توفي تحت بصرنا من أثر الجراح ، فاحمدي الله الذي أدال لك (إلى دن دياج) انظر كيف شحب لونها لهذا النبأ .

دن دياج : وانظر كيف أخذتها الغشية من شدة هواها ، ثم اعجب يا مولاي من ظاهر الغم عليها ، قد هتك حزنها سرائرَ نفسها ، ولم يترك لك ريباً في هيامها .

شيمان : أمات اذن لذريق ؟

دن فرنان : لا . لا . إنه ما زال حياً ، وما زال محتفظاً بعهده ، مقيماً على ودّه ، فرفّهي عنكِ ، ولطّفي من جزعك عليه .

شيمان : مولاي، يُدار بالمرء من الفرح كما يدار به من الترح ، وفرط الجذل إذا فاجأ النفس ملك عليها حواسها ، وأوهى شغاف القلب .

دن فرنان : ترومين يا شيمان تصديق ما تكذّبه شهادة العيان وقد ظهر عليك الأسى باجلى مظاهره .

شيمان : ايه يا مولاي ، أضف هـذا الظن بي الى شدة تعسي وهب الغاشية التي غشيتني جزعاً عليه فإن حزني ـ ولي فيه كل العذر ـ قد أرابكم في كنه أمري،وإنما فجعني نعيه لسقوط رأسه في غير وتري ، ولأنه لو أودت به جراحه في سبيل البلاد لفسد انتقامي وأخفقت مساعيّ . تلك ميتة كريمة أراها غير عادلة في حقي،اما التي أريدها له فميتة لا يصحبها فخار ، ولا تحيط بها أبهة ترفعه الى أعلى الذرى ميتة تدركه لا في ميدان الشرف بل على المقصلة[1] .فليـقتل من أجل أبي لا من أجل الوطن ، وليكن اسمه ملوّثاً وذكراه مشينة . اما ضيعة العمر من أجل الوطن فليست بغبن بل هي الخلود في أبرع صورة للفناء ، فخليق بي ان اغتبط بانتصاره،ولا جناح عليّ ، اذ انتصاره يعزّ الدولة، ويردّ على غريمي عالي القدر في الرجال، مرفوع الذكر في الأبطال، متوّج الرأس

(١) المقصلة : آلة للاعدام قوامها سكين تسقط على رأس المجرم فتقطعه .

لا بالأزهار ولكن بالغار ، أليق ما يكون قرباناً لبقايا والدي يا ويحي لقد أبعدت مرمى أملي. هل على لذريق باس يخشاه مني وما عليه من دموع إنما تزري على ذرافها .

قد أصبح الملكُ بأسره مامناً له ومعتصماً، وكل حرام عاد له مباحاً تحت سلطانك ، استظهر عليّ كما استظهر على الأعداء ، وأراق من الدماء الزكية ما شرف به العدل حتى اختنق ، فلم يكن جزاء المنتصر ـ على جرائمه ـ إلا حلية جديدة أضيفت إلى حلاه وزينة ذات بهارج ، مشيْنا فيها بكره الانصاف وراء مركبة الظافر يحفّ بها ملكان أسيران.

دن فرنان : يا ابنتي جاوزتِ الحد في سورة غضبك ، اما موقع الأحكام فشأنه ان يزن القضايا بميزان النزاهة .

قُتل أبوكِ إلا انه المعتدي ، وتلقاء ذلك يأمرني العدل بالرحمة فشاوري قلبك قبل ان تتهميني في ما بدا مني ، ولا جرم ان الغرام الذي تنضم عليه جوانحك يحمد المليك لإبقائه على عشيق لك ، ناهيك به من عشيق .

شيان : أبسببي تبقي على عدوّي ، على مثير حنقي ، على مسبّب مصائبي ، على قاتل أبي ؟ انك لا تقدّرُ مسلكي القويم قدره

وتحسبني شكوراً لإعراضك عن ظلامتي .

فأما وأنت لا تُشكيني ممـــا أشكو اليك بدموعي ، فأْذن يا مولاي أن ألجأ الى السلاح ، هو بالسيف ألحق بي العـــار وأنا بالسيف أتقاضى الثأر ، اني لأطلب رأسه من جميع فرسانك . اجل ، ومن جاءني بـه كنت له حليلة ، فليبارزه يا مولاي،فمن انتقم لي من لذريق رضيت به قريناً.

دن فرنان : تلك العادة القديمة التي اصطلح عليها قومي ، وزعمهم انهـا تأخذ للمظلوم من الظـالم ، تضعف الدولة ، وتحرمها خيرة أبطالها ، على انه يغلب من جرّاء هذه العادة الذميمة أن البريء يهضم ، والأثيم يعظم ، فانا أعفي منها لذريق وهو أكرم عليّ من تعريضه لتصاريف لا تؤمن بدراتها . لئن يكن لذلك القلب النبيل ذنب لقد ذهب بـــه المغاربة وهم منهزمون .

دن دياج : مهلاً مولاي ، أمن أجله وحده تغيّـر شرعة جرى عليهـا اهل البلاط قديماً وما فتئت مرعية . فمـا يظن شعبك وما يقول الحسّـاد اذا اطاع لذريق نهيك وارعى على حياته ،

واتخذ منه عذراً ليكون بمفازة[1] حين يخوض اولو الشرف والإباء غمار الحومات في التماس ردى كريم ؟ ان مثل هذه المحاباة لتمسه في مجده مساً مبرحاً ، فدعه يتذوق ثمرات فوزه بلا تنغيص . قد اعتدى الكنت على ابيه فتولى عنه جزاءه ، وأبلى في لقائه بلاء الباسل ، فليكن باسلاً الى النهاية .

دن فرنان : إجابة الى طلبك آذن ان يبارز ، ولكنه قد يغلب واحداً فيحلّ ألف محله ، لأن وعد شيمان يستعدي عليه فرساني باسرهم،فليس من العدل تصدّيه وحده لهم جميعاً . وحسبه ان يدخل في نزال واحد .

اختاري يا شيمان من تشائين ، واحسني اختيارك ، فاذا انقضى هذا الكفاح فلا تساليني مزيداً .

دن دياج : لا تجعل أمرك هذا عذراً لتبجّح الذين يخشون باسه . ودع الميدان مفتوحاً . اذن لا يدخله احد ، فبعد الذي أبداه لذريق اليوم ، مَن القرْم[2] العنيد الذي ينبري له ؟

---

(١) مفازة : منجاة ، مفلحة .

(٢) القرم : السيد العظيم، وقرم إلى اللحم : اشتدت شهوته له.

من الذي يغامر بحياته في لقاء قرن مثله ؟
من يكون ذلك المقدام او ذلك الجسور ؟

دن سنش : مروا بفتح الميدان . أنا ذلك المقتحم . أنا ذلك الجسور أو ذلك المقدام. جودي بهذه المنّـة على من يشتعل قلبه بهواك، وتذكري يا سيدتي وعداً أستنجزه .

دن فرنان : شيمان ، أتجعلين قضيتك بين يديه ؟

شيمان : مولاي ، سبق الوعد .

دن فرنان : تأهب لغد .

دن دياج : لا يا مولاي ، لا يحسن الإرجاء ، والشجاع الحق يكون على أهبة في كل آن .

دن فرنان : أيخرج من جهاد ، ويدخل في جلاد على الأثر ؟

دن دياج : قد استجمّ لذريق مدة ما قصّ عليك الواقعة .

دن فرنان : فليسترح ساعة او اثنتين ، وحذار من ان يعدّ هذا البراز قدوة يقتدى بها ، ليعلم كل قاصٍ ودان انني بغير رضاي أبحث أمراً لا يليق بي .

فلن أشهد هـذه المكافحة ولن يشهدها رجال قصري .
(الى دن ارياس) أنت وحدك تحكم في أي المتبارزين أبسل

وتحرص أن يتصرف احدهما تصرفاً يأباه الكرم ، فاذا انتهى النزال احضر إليّ الغالب أيهما كان ليصيب الجزاء الموعود ، اريد ان أقدمه لشيمان بيدي ، فتكافئه بالمعاهدة على القران .

شيمان : رحماك مولاي ، أتلزمني هذا الحكم القاسي .

دن فرنان : تشكين ، ولكن حبك ينكر عليك الشكوى ويقبل بلا إكراه لذريق اذا عـــاد ظافراً ، فدعي التأفف من حكم يستعذبه قلبك .

وأي النيـدّين عاد منتصراً ساجعله لك قريناً .

الفصل الخامس

المشهد الأول

دن لذريق ، شيمان

شيمان : أأنت يا لذريق ، وفي رائعة النهار ، أنـّى لك هذه الجرأة ؟ اذهب او تفقدني شرفي. انصرف عني، أبتهل اليك مستعطفة.

دن لذريق : أنا ذاهب الى الموت يا سيدتي ، وقد جئتك في هذا المكان لأودّعك آخر وداع قبل ان أتلقى الضربة القاضية . وان هواك لأثبت في فؤادي من أن أرى الردى ، ولا أجعله لك فدى .

شيمان : أتمضي الى الموت ؟

دن لذريق : سأبادر الى تلك المنيهة المنيئـة ، أقدّم فيها حياتي لشفاء أحقادك .

شيان : تمضي الى الموت ! أترى في دن سنش من شدة الباس ما يحدث ذعراً في قلب لا يقهر ؟ ماذا أوهنك الى هذا الحدّ او ماذا قوّاه الى هذا الحد ؟

ألذريق يذهب للنزال فيتوهم انه قتيل ولما يُقْتَل ؟

أذاك الذي لم يخشَ المغاربة، ولم تأخذه الرهبة من أبي يمضي للقاء دن سنش فييأس قبل مظنة اليأس ؟

وعلى هذا فقد تكون حالة ينخلع فيها قلبك .

دن لذريق : أبادر الى العذاب لا الى القتال ، وصدق هوايَ لك قد أزال ولا ريب من نفسي أدنى رغبة في بقائي حين تطلبين مماتي. قلبي هو هو ، ولكنني لا ساعد لي أحفظ به ما لا ترضين عنه. في الليلة البارحة أوشكت ان أَلحَقَ بالفارين لو كانت المناوأة في شأن لي ، فأما وقد كنت أذود عن ملكي وشعبه وبلادي فقد خشيت ان أخونهم بسوء الدفاع عن نفسي ، وفي قلبي من الكرم ما لا يبغّض الحياة عليه الى حد ان يخرج منها وقد اقترف غدراً .

اما الآن والمسألة لا تعدو مصلحتي بانفرادي ، فانت

تتقاضين موتي ، وانا أمتثل لقضائك ، وقد تقاضاك الحنق الى إيثار يد غيرك ـ اذ لم أكن خليقاً ان أموت بيدك ـ فلن أصد عني ضربات ذلك الخصم اذ هو أحق مـــا أراه برعايتي لأنه يقاتل في سبيلك ، وأجذل ما أكون لعلمي ان ضرباته آتية منك ، وان سلاحه يشهر في سبيل شرفك . وساكشف له صدري لا يقيه مجنّ . وساعبد في يده يدكَ التي تُودي بحياتي .

شيان : إذا كان واجبي الأليم، وقد أثار بي غضباً مشروعاً وحداني على هذه الخصومة ، قد حكم هذا الحكم القاسي على حُبِّكَ لي ، فحال دون ذَوْدِك عن نفسك من هجوم المطـالب بحقي ، فلا تنسَ في هذه الضلالة التي غشَّت على بصرك ان الخطب لا يقتصر على حياتك بل يتناول مجدك . وان حسن سمعتك بالغاً ما بلغ في أيامك لن يدفع قول الناس اذا قُتِلْتَ انك غُلِبْتَ ، ولا جرم ان شرفك أحب اليك مني ، اذ انــه غمس يديك في دم ابي ، وجعلك على هيامك بي تؤثره على قربي ، ومـا زلت ـ كما أرى ـ لا تحسب لهذا الشرف ادنى حساب ، فتابى ان تُحسن البلاء

في القتال ، وترضى ان يُنال منك ، فاي تباين في الخُلق يوهي عزّة نفسك ، وعَلامَ تخليتَ ؟ او علام تحلّيتَ بها قبلاً . عجباً ! ألست أسداً الاّ عليّ ؟ فإذا خلا النزال من اساءة اليّ.فارقتك البسالة .

ايهون عليك والدي وانت غالبه ، فتَستَسهِل بعده ان يغلبك احد . امض غير مصرٍّ على الموت ، ودعني اتعقبك . وان لم تكن راغباً في البقاء فلا يفُتْكَ النصحُ عن شرفك .

دين لذريق : بعد مقتل الكنت واندحار المغاربة أيتطلع مجدي الى المزيد؟ لي ان أهمل الدفـــاع عن نفسي بعد ان شهدت مواقفي بكفايتي لكل عظيمة ، ومضائي في كل مهمة ، وبانه ما من شيء تحت السماء يعزّ عليّ اكثر من شرفي .

لا لا . والأمر على غير ما تتوهمين ، يقضي لذريق في هذا النزال موفور الكرامة ، لا يجرؤ أحد على اتهامه في شجاعته ، ولن يُعدَّ مغلوباً ، ولن يعرَفَ له غالبٌ . وإنما سيقول القائلون: « كان يعبد شيمان، فلم يرضَ بالعيش وهي

عليه حانقة ، فاستسلم مختاراً لأمر التصاريف ، وقد أبت هذه على معشوقته الا ان تبغي هلاكه،أرادت رأسه فأوحى اليه قلبه النبيل انه إذا ضنّ به عليها أذنب اليها ، فلإنقاذ شرفه أضاع غرامه . وللأخذ بثأر مُتيّمته وهب عمره ، لم يكترث للأمل يخامر نفسه المشغولة بها ، وآثر شرفه على شيان وشيان على حياته » . وهكذا ستعلمين ان منيّتي في هذا الثّقاف[1] لا تشوب مجدي بشائبة بل تزيده سطوعاً ، ولي شرف آخر يعقب موتي الطوعي ، وهو انه لم يكن في وسع آخر سواي ليرضيك .

شيان : امـا وليس لحياتك ولا لشرفك نهي عليك ، ولا أمر في الاستبسال ، فإذا كنت قد هويتك يا حبيبي لذريق، فاجعل عوضي من هـــذا الحبّ ان تذود عن نفسك لتنقذني من دن سنش . قاتل لتحرّرني من رقّ من لا أحب . أأزيدك على ما قلت : اذهب ، ونازل ، وفز لتغلبني على واجبي ، وتكرهني على الصمت ، وإذا كنت تشعر بأن قلبك مـا

---

(١) الثقاف : الخصام .

زال مشغوفاً بي فاخرج ظافراً من نزال جزاؤه شيان ،
أستودعك الله . هذه التي بدرت مني يندى لها جبيني .

دن لذريق : أيّ عدو لا أكبح اليوم جماحه !

تعالوا يا أهل نافار والمغرب وقشتالة وفرسان اسبانيا وصناديدها أجمعين ، تألبوا إلباً[1] واحداً ، واجمعوا جيشاً عرمرماً لتقاتلوا ساعداً مسلحاً بمثل ما سلح به ساعدي . ضموا أشتات قواكم في وجـــه امل عذب كاملي ، فما والله تكفون باسركم لتنالوا منه منالاً .

(١) إلباً : القوم تجمعهم عداوة واحد .

المشهد الثاني

بنت الملك

بنت الملك : أأظل مصغية اليك يا حرصي على محتدي ، وأنت تعد عليّ الحب ذنباً ؟ أأستمع لك يا غراماً يهيج بسلطانه الموموق[1] أماني نفسي ، ويستعديها على ذلك المستبد العاتي . مسكينة أيتها الأميرة ، أي الداعيين يجب أن تجيبي ؟

لذريق ، ان اقدامك يجعلك اهلاً لي ، ولكنك على بسالتك لست بسليل مليك ، يا للدهر الغشوم يفرق بين مجدي وصبابتي . أكان في الظن ان غرامي برجل لا كِفْل له في الرجال يسوم مهجتي أشجاناً كهذه الأشجان .

وا ربّاه ! كم من زفرة يجب ان يتهيا قلبي لتصعيدها اذا فاتني بعد هذا العذاب المديد سلوّ[2] يخمد لوعتي ، او

---

(١) موموق : محبوب .

(٢) سلا الشيء : طابت نفسه عنه ونسيه .

قرب يبرّد غلّتي ، ولكنني افرطت في احترازي ويابى ضميري ان يضع موضع الزراية فتى بلغ ذلك المبلغ من الكفاية .

نعم ، ان نسَبي يخص بي الملوك دون سواهم ، غير انني يا لذريق اعيش هانئة تحت ولايتك ، وهل بعـــد انتصارك على ملكين يفوتك ان تصبح رب تاج . أوليس اسم السيد الذي لُقبتَ به ، وانه لعظيم ، دالاً بلا مراء على من يليق ان تبسط سلطانك عليه ، هو اهـــل لي ولكنه لشيمان .. وهبته لها هبة عاد عليّ ضيرها ، على ان قتله اباها لم يُثر بينهما من البغضاء إلا النزر اليسير بحيث أن واجب الأخـذ بالثار يتعقبه آسفاً فلا ننتظرن ثمرة وان قلّت من جريمته ومن شغلي به اذ ان القضاء لم يرق لي ، وأعلى كلمة الغرام على الرغبة في الانتقام .

المشهد الثالث

بنت الملك ، ليونورة

بنت الملك : علامَ جئت يا ليونورة ؟

ليونورة : جئت لأهنئك يا مولاتي بعود الصفاء الى نفسك .

بنت الملك : ومن أين ياتي الصفاء في هذا الكدر الشديد ؟

ليونورة : اذا كان الهوى يحيا بحياة الأمل ، ويموت بموته ، فقد بطل سحر لذريق وبرىء قلبك من رقاه ، فذلك النزال الذي حثته اليه شيمان على أن يقتل فيه ، او يغدو بعلاً لها قـد أودى بأملك ، ولكنه شفى نفسك .

بنت الملك : آه ! دون ذلك مدى قُذُفٌ (١) .

ليونورة : أبقيَ لكِ فيه مطمع ؟

بنت الملك : بل أي مطمع تحظرينه عليَّ وفي وسعي أن أكيد كيدي

---

(١) القذف : البعيد .

لخيبة الأمل الذي تعلّـل به في ذلك النزال، وما أكثر الحيل التي يوحيها الغرام الى عقول العشاق الذين كابدوا تباريحه .

ليونورة : ما الذي تستطيعينه ، وقـــد عجز مقتل ابيها عن إيقاد جذوة الشقاق بين قلبيهما ، وشيمان تبدي في سيرتها اليوم ، غير متورعة ، أن البغضاء ليست السبب في خصومتها ، فقد فازت بإباحة القتال ، ورضيت من اجـل عاشقها بأن تكون زوجاً لأول من يُقدّم لها . لم تلجأ الى سواعد مدربة قوية أصلبتها المعارك الشهيرة المتعددة ، واجترأت بدن سنش دون سواه لأنه سينتضي السلاح لأول مرة،استحبت منه انــه عادم الخبرة لم تسبق له شهرة بالجلاد ، فاوردته بلا حذر ورد الأريب [1] في عقباه. وذاك عمل ليس مرماه بسرّ ، فهي إنما آثرت هـذا النزال ليقوم معه عذرها في مخالفـة ما يجب ، هيأت بـه للذريق نصراً ميسورا حتى اذا احرزه تظاهرت بالانضواء لأمر القضاء .

بنت الملك : لحت هـــذا ، سوى أن قلبي ينافس شيمان في عبادة ذلك

---

(١) الأريب : الماهر .

الظافر ، فاي شطر ترين ان اولّـي وجهي ، وأنا العاشقة المنكودة ؟

ليونورة : تذكري ، جهدك ، بنتُ من انت . اذا وعد الله لك ملِـكاً أفتشغلين قلبك بمن دونه مقاماً ؟

بنت الملك : قد تغير مرمى غرامي ، فمـــا شغفي بلذريق من حيث لا يعدو الرجل النبيل، كلا ويعيذه حبي ان‌اسميه بهذا الاسم، ان اهوى إلا صاحب الملاحم المرفوعة الذكر في الأنبـاء ، الشجاع الملقب بالسيد ، الذي اصبح من اتباعه ملـكان . على انني ساتغلب على نفسي، لا خشية الملام، بل صوناً لغرامي من شبهة تعلق به . فلو انهم اصطنعوني ، وزانوا لي مفرقه بالتاج لأبيت أن آخذ اليد التي اعطيت واذا كان محتوماً له الفوز في عقبى ذلك النزال فلنمضِ ولنهبه مرة اخرى لشيمان .

أما أنت التي رأيت مواقع السهام من قلبي ، فتعالي واشهدي كيف أتم ما بدأت .

المشهد الرابع

شيمان ، الفيرة

شيمان : الفيرة ، ما أشد ألمي ، وما أجدرني بالرثاء ، لا أعرف ما ارجو ويلوح لي كل ما أخشى . تبدر مني الأماني ، فما أجسر ان أتمناها وما أبتغي من شيء إلا والندم العاجل لزامـه .

دفعت متناظر ين في حبي الى امتشاق الحسام ، وأيهما أفلح أجرى سخين دمعي،ومهما يكن من ترقب ذات الغيب فإني بين خطبين : ابي ولم ينتقم له ، او عشيقي وقد قتل .

الفيرة : بل أجد ان احدى العاقبتين ستخفف من برحائك[1] . فأما لذريق تفوزين بقربه ، واما ثأرك تدركينه . ومهما يكن من تصرفات الدهر في أمرك ، فهو اما يؤيد مجدك او يهبُ لك حليلاً .

(١) برحاء : الشدة والأذى .

شيمان : واعجباً ! اذلك الذي أمقته ام ذلك الذي أطالبه بوتري[1] ؟ أقاتل لذريق ام قاتل أبي ؟ أحدهما يجعل لي قريناً وأتلقاه مخضّباً باكرم دم عليّ . تثور نفسي من كلا الجانبين وما أخاف الموت كما أخاف عقبى هذه الخصومة .

يا انتقامي ويا حبي ، اليكما عني ، فقد قذفتما في روعي بلبالاً لا تعادله لذة تستفاد منكما .

وانت ايها المحرك القدير لما أشكو من تصاريف المقادير أختم هذا البراز لا تعلو فيه كلمة ند على ند ولا يكون فيه غالب ولا مغلوب .

الفيرة : لو أستجيب دعاؤك لعدت أشد بؤساً ، ولقيت من جراء هذا النزال عذاباً جديداً . لخير لك من ان تظلي بعده مهضومة الحق مهتاجة بما يساورك من عوامل الحقد، مطالبة من غير هوادة بموت من تحبين ، لخير لك يا سيدتي ان يعود لذريق وافر العزة بما أوتيه من البأس متوج الرأس فتنزلي كظيمة الغيظ على حكم النزال ، ويكرهك الملك على إدراك

---

(١) وتري : الانتقام ، الظلم .

ما تشتهين .

شيان : أجدّكِ ! إذا فاز فهل تظنين انني أستسلم ! لواجبي اسمى وخسارتي أعظم من ان يتقيدا بحكم السيف او بأمر الملك. يقدر لذريق على قهر دن سنش بلا عناء ، ولكنه لا يقدر على المساس بمجد شيان ، ولست أبالي وعد الملك له . فإن صدق عزيمتي في الذود عن شرفي يجد له ألف عدو .

الفيرة : احذري ان يحاسبك الله على هذه الكبرياء فيأذن ان ينتقم لك دن سنش . يا عجباً ! أتظلين ترغبين عن السعادة ، وتأبين ان يتسنى لك الامتثال مع سلامة الشرف، ماذا يريد هذا الواجب، والى اين ينتهي أمله ! أبموْتِ عشيقك يبعث أبوك حياً ؟ أقليل عليك ان تصابي برزء واحد ؟ وهل تلتمسين غبناً فوق غبن ، وحزناً فوق حزن . انك مع مجاراتك لطبعك على مـــا يشاء من التبدل والتحول ، لا تكونين جديرة بالعاشق الذي يبتغونه لك قريناً ، وقد نرى من سخط القدر ــ إذا استجاب لك ــ آية تذهب بلذريق ، وتدع لك دن سنش بعلاً .

شيمان : حسبي يا الفيرة ما أكابد من نوازع النفس ، فلا تضاعفيها بهذا التنبؤ الوبيل . أبغي لو استطعت ان أخلص منهما كليهما ، وإلا فان آخر دعائي ان يظفر لذريق في هـــذا النزال لا لأن فرط الهيام يجنح بي الى جانبه ، ولكن خشية من مآلي الى دن سنش . ومن هـذه الخشية تتولد امنيتي . واشقوتاه ! ماذا أرى ؟ الفيرة ، قُضي الأمر .

المشهد الخامس

دن سنش ، شيمان ، الفيرة

دن سنش : بكرهي ألقي على قدميك هذا السيف .

شيمان : ويلاه !! السيف المخضب بدم لذريق ؟

أيها الغادر أتجرؤ ان تظهر امام عيني بعد ان حرمتني أحبّ شيء لدي . أمط نقابك يا غرامي فما عليك اليوم من باس . رضي أبي وحسبك تكتما . ضربة واحـدة أمنت

شرفي ، وأياست نفسي ، وأطلقت صبابتي من سجن صدري .

دن سنش : هدئي جاشك .

شيان : أتخاطبني بعد ؟ أيها القاتل البغيض لبطلٍ اعبده ، اذهب فقد أخذته غيلة، ومثل ذلك المغوار الصنديد ما كان ليقتل بيد مبارز من طرازك. لا تُنط بي أملاً ما ، ولا شكر على خدمتك ، فلئن زعمت انك انتقمت لي لقد أزلت حياتي .

دن سنش : ما اغرب هذه الفورة التي تُصمّها عن سماع . . .

شيان : أتبغي ان اسمع منك كلمات الفخر والتباهي ، وأن أصبر على ما تذكره ، في قحة وخيلاء ، من وصف صرعته وجريمتي وشجاعتك .

المشهد السادس

دن فرنان ، دن دياج ، دن ارياس ، دن سنش ، دن النس ، شيمان ، الفيرة

شيمان : مولاي ، برح الآن الخفاء بعد طول المجادلة ، ولات حين كتمان . كنت أهوى وتعلم سريرتي . غير انني صممت على اباحة ذلك الرأس العزيز ، للأخذ بثار أبي ، وقد رأيت بعينيك يا صاحب الجلالة كيف أذللت غرامي لواجبي ، فالآن مات لذريق وموته حوّلني من عدوّة شديدة الى عاشقة مدلهة[1] .

كان هذا الانتقام ديناً عليّ لبرّي بوالدي ، وهذه العبرات اليوم دين عليّ لهواي . قضى عليّ دن سنش بتولّيه الذود عني ، أفاكون الجزاء لذلك الساعد الذي أودى بي ؟

فيا مولاي، اذا كان للشفقة أثر في نفس ملك، فرحماك، وانقض ذلك العهد الذي أبرمته بكرهي، وقدْه مني مكافأة

(١) دله : ذهب قلبه من هم ونحوه .

على قتله عديل روحي ان أتخلى له عن كل ما لي . فليخلني ونفسي اعتزل الدنيا في دير مقدس ، وأبكي الى آخر نسمة من حياتي أبي وحبيبي .

دن دياج : انها لمحبة يا مولاي ، ولا تَرَ جناحاً عليها ان تعترف بغرامها المحلل .

دن فرنان : شيمان ، عودي الى نفسك . لم يمت صاحبك ، وإنما غُلب دن سنش ، ولم يصدقك النبأ .

دن سنش : مولاي ، إنما خدعتها سورة نفسها ، فقد جئت من الميدان عقبى النزال ، وكان ذلك البطل الكريم الذي يتّم فؤادها قد قال لي عندما أسقط السيف من يدي : « لا تخشَ نكيراً سأدع النصر لا لك ولا عليك ، ذلك خير من ان أريق دماً عُرّض في سبيل شيمان ،وبما أن واجبي يدعوني الى المثول لدى الملك فاذهب اليها واخبرها بما جرى ، وألقِ على قدميها حسام الظافر » . فبادرت اليها يا مولاي ، ولكن رؤية السيف أطارت لبّها . ظنتني أنا الفائز إذ رأتني عائداً ، وفاض غضبها بما كشف عن سريرتها ، فتكلمت ،

وقد ثارت ثائرتها ووهى جلدَها ، ولم تمكنني من الافضاء بكلمة اليها. على انني وان كنت قد غُلبت،أراني مغتبطاً، ومع ما يملأ جوانحي من الهيام بها ، ومع ما بُؤت به ، وقد خسرتها ، من فشل لا يدرك مداه لست أقلى فشلي في جلاد كان من مغبته هذا الفوز الباهر لذلك الهوى الطاهر .

دن فرنان : يا بنيتي لا ينبغي أن تخجلي من مثل هـذا الوفاء في الحب ولا ان تعمدي لإنكاره وان دعاك اليه الخفر. مجدك مصون وشرفك سليم . وأبوك راضٍ يكفيه منك انك للأخذ بثأره ، عرّضتِ لذريق غير مرّة للهلكة . فقـــد رأيت كيف يتصرف الله بغير ما ننوي ، وقـد فعلت كل شيء لأبيك ، فافعلي شيئاً لنفسك . لا تعصي ما أتقدم به اليك وتقبلي مني زوجاً تحبينه ذلك الحب .

المشهد السابع

دن فرنان ، دن دياج ، دن ارياس

دن لذريق ، دن النس ، دن سنش ، بنت الملك ، شيمان ، ليونورة ، الفيرة

بنت الملك : كفكفي دموعك يا شيمان وتلقي بلا حزن هـــذا الغالب الكريم من يد أميرتك .

دن لذريق : لا يسؤْكَ يا مولاي ان اجثو على قدميها في حضرتك إطاعة لغرامي . لست ، يا سيدتي ، بموقفي منك الآن مطالباً بجزائي، بل انا آتٍ مرة اخرى لأقدم لك رأسي غير متذرع لديك بحكم المليك، ولا بشرع النزال ، فإذا كان كل ما عُمل أقل مما يجب لو الد،فقولي بماذا أستطيع ارضاءك. أتريدين ان اصارع ألفاً بعد ألف من الشجعان،وأن أتبسط في فتوحي الى أقاصي الدنيا ، وان أقتحم بمفردي معسكراً ، وأهزم جيشاً ، وان أبزّ ببعد شهرتي أبطال السير . فإن كان ذنبي يغسل بتلك الفعال اضطلعت بكل امر جسيم وأتيت بكل عجب عجاب . اما اذا كان ذلك الشرف السنيّ غلةً

لا تُبرّد إلا بوفاتي ، فلا تسلّحي علي بعدُ يدَ إنسيّ . بل هذا رأسي على قدميك فانتقمي بيديك . ويداك وحدهما حقيقتان بقهر من لا يقهر . خذي من الثار بما لا يستطيعه سواك ، وعندئذ ليكفك عقاباً لي ان يضحوَ ظلّي . فإن أبعدْ ، فلا تزيديني بالسلوّ بعداً ، وإذا ما أتاح لك موتي صيانة لمجدك،فاجعلي جزائي الاحتفاظَ بذكراي ، وقولي احياناً في أسف عليّ : لولا هواه لَما جاد بحياته .

شيان : انهض يا لذريق . انني لأقرّ يا مولاي ان ما قلته اثبت من من ان استطيع له نقضاً . هيهات ان اقدر على مقت لذريق وفيه تلك الفضائل . ومتى امر الملك وجب الامتثال . بيد انه مهما يكن الامر الذي تسومونني ، فهل بوسعكم ان تشهدوا مثل هذا الزواج ؟ وإذا ألزمتموني من الاذعان ما يأباه واجبي افيُمضى بذلك العدل كل العدل . ان اصبح لذريق حاجة للدولة فهل تعين عليّ ان اكون الجزاء لما يفعله في سبيلكم،وان أعرض نفسي لتأنيبٍ سرمدي على تخضيبي معصمي بدم والدي .

دن فرنان : كثيراً ما جرى ان الزمان هوّن ما كان صعباً ، وأحلّ

ما عُدّ حراماً . قد كسبك لذريق ويجب ان تكوني له : ولكنني على ما ثبت من حقه لا اقف منك موقف غير المكترث ، لما يوجبه سناء مقامك ، ولا اتعجل في منحه ثمرة انتصاره ، فإذا ارجِىء القران فلا مخالفة ، والحكم لزواج لم يقيّـد بميقات، فلك مهلة سنة تكفكفين فيها عبراتك وانت يا لذريق عليك في هذه المدة ان تحمل السلاح. دحرت المغاربة على شواطئنا ، وعكست عليهم مراميهم وأبطلت مساعيهم ، فاذهب الآن اليهم في نفس بلادهم وشنّ عليهم الغـارات مؤمّـراً على جيش ، موكّـلاً بإنزال الثبور في اعدائي ، ففي اسم السيد كفاية بإلقاء الرعب في قلوبهم ، وقد دعوك مولى فربما ارادوك ملكاً . ولكن الزم الوفاء لشيمان اثناء صولاتك[1] العظيمة . ثم عد، اعادك الله غانماً ، اولى بها مما كنت ، اعلِ ذكرك وضاعف شانك بحسن بلائك حتى يصبح من الفخر لها يومئذ ان تقترن بك .

دن لذريق : من اجل الظفر بشيمان والقيام بخدمتك ايّ امر ، وان جل، يتعذر عليّ إنفاذه ، ومهما يشق عليّ بُعدها عن عينك

(١) صولة : السطوة ، المقدرة .

فحسبي يا مولاي ان امسي على أمل من رضاها .

دن فرنان : نط املك بشجاعتك ، وكِلْهُ الى وعدي ، فأما ومكانك اعز مكان في قلب شيمان ، فخير حلّ لعقدة الشرف التي حالت بينكما ، ان تدع الزمان يفعل فعله ، وان تعتمد على شجاعتك وعلى مليكك .

سلسلة المسرح العالمي

تعريب خليل مطران

شكسبير :

تاجر البندقية
هملت
عطيل
مكبث

كورناي :

السيد
بوليوكت
سنتا

فكتور هيغو :

هرناني

تعريب أديب اسحاق

راسين :

أندروماك

شارلمان



المطبعة العربية
بيروت - لبنان
هاتف ٢٦٩٠٨٨

سلسلة المسرح العالمي

تاجر البندقية	شكسبير	تعريب خليل مطران
مكبث	شكسبير	تعريب خليل مطران
هملت	شكسبير	تعريب خليل مطران
عطيل	شكسبير	تعريب خليل مطران
بوليوكت	كورناي	تعريب خليل مطران
السيد	كورناي	تعريب خليل مطران
سنّا	كورناي	تعريب خليل مطران
هرناني	فيكتور هيغو	تعريب خليل مطران
أندروماك	راسين	تعريب اديب اسحاق
شارلمان		تعريب اديب اسحاق

توزيع دار الجيل